للحقيقة وجوهٌ أخرى!

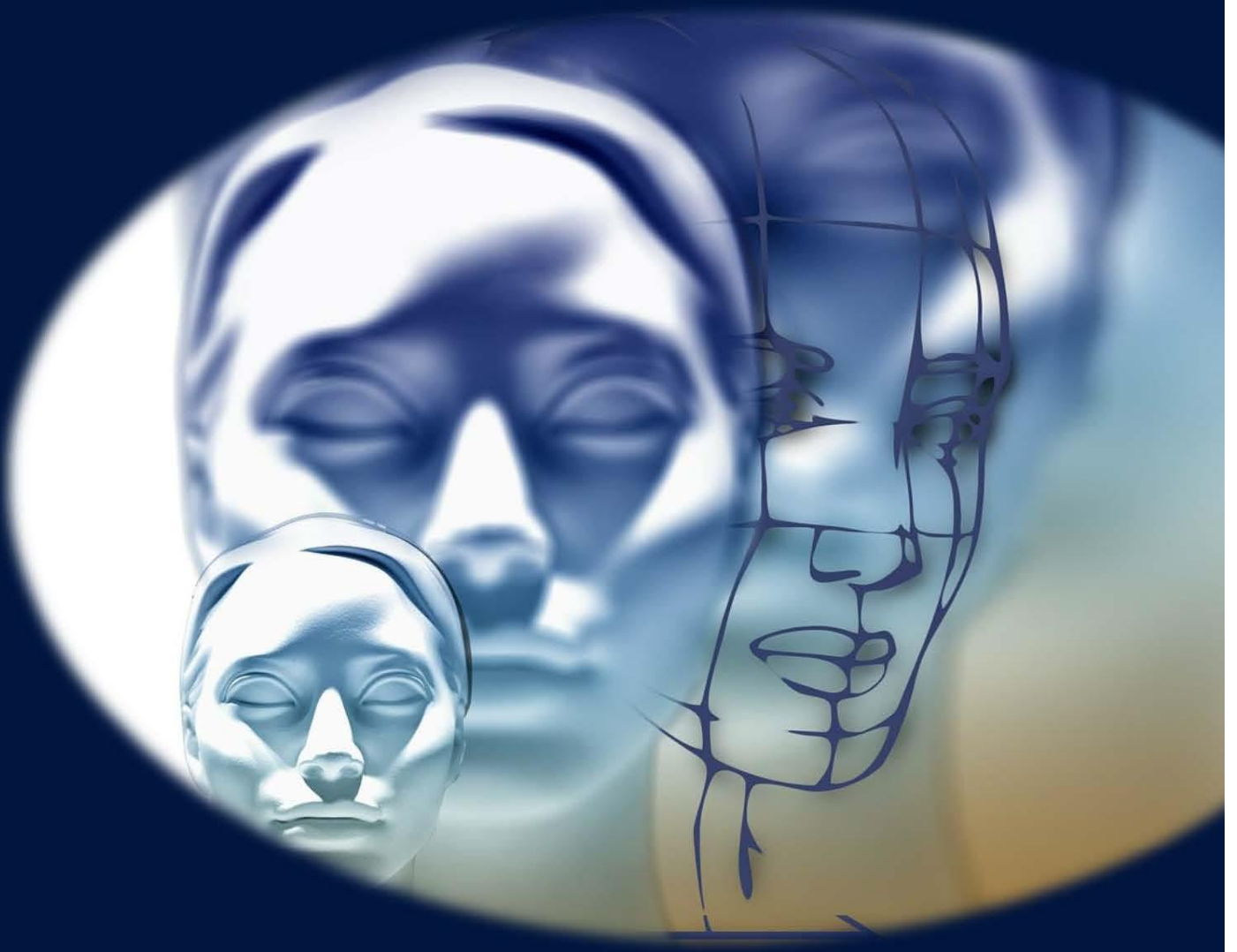

بقلم الكاتب الصحفي/

حاتم إبراهيم سلامة

إهـــــداء

إلى أستاذي الراقي الذي أحببته وتعلمت منه، ورأيت فيه معنى الخلق والصدق والاتزان والتواضع والأخلاص واللين في أبهى صوره.. إلى صاحب النفس الحرة الكريمة، إلى المناضل الشريف والكاتب النبيل الصحفي الكبير

بدر محمد بدر

مقدمة

بعض الناس يظنون أن ما يرونه من الحقائق، لا تفسير له إلا الوجه الذي يرونه ويعتقدوه ويؤمنون به، وأن أي تأويل مخالف لما يرونه، أو أي تفسير يناهض ما يقولونه، هراء ووهم وادعاء لا سناد له من العقل والمنطق والوعي، فيرفضون الاعتراف به، أو حتى مجرد الانصات والاستماع له، وهذا لا شك تعنت هائل وجحود كبير.

كثير من الأشياء والمواقف والأحداث والصفات والتصرفات والأقوال والأفعال والآراء والأهواء والمذاهب والظنون والاجتهادات التي نقابلها في دنيانا، نتخيل أنها الحقيقة المتفردة والنهائية، والرأي الصائب الرأي معه ولا تأويل.

ثم لا نلبث إلا ونتبين أن هذه الحقيقة المطلقة والمتفردة، والتي لا تفسير غيرها، لها حقائق أخرى وصور متباينه ورؤية مختلفة وظنون مغايرة، ومشاهد في اتجاه آخر.

نعم فالحقيقة التي يؤمن بها المرء أو يراها نابعة من تفسيره وظنه، ليست هي الحكم الوحيد والمؤبد على الأشياء، لأنها نابعة من مداركه واجتهاداته، ثم نجد هنا أن الأفهام والمدارك تختلف وتتفاوت بين البشر قوة وذكاء وعلما وجهلا، ضيقًا وسعة، تأملا وتسرعًا، ومن ثم تختلف الاستنتاجات والأحكام على الشيء الواحد.

أرأيت إلى ذلك السجال في قصة موسى والخضر عليهما السلام، لقد ارتكب الخضر ثلاثة مواقف فسرها موسى بتفسيره الذي يمليه عليه الواقع والمنطق والعقل والعين، وهي الأمور التي لا تقبل تفسيرًا آخر للأشياء، لكن الحقيقة أن رؤية الخضر لها، كانت نابعة من اتجاه آخر وهو العلم من الله العظيم، الذي هداه لبواطن الأمور ومصائر الأشياء فكان ما كان من تصرفه المستغرب.

وهناك قصة تحكي أنه دخل ثلاثة من العميان الذين أصيبوا بالعمي منذ ولادتهم غرفة بها فيل، وطلب منهم أن يكتشفوا ما هو الفيل بدأوا في تحسسه وخرج كل منهم ليبدأ في الوصف قال الأول: الفيل هو أربعة عمدان على الأرض وقال الثاني: الفيل يشبه الثعبان

تماما في حين قال الثالث: الفيل يشبه المكنسة! وحين وجدوا أنهم مختلفون بدأوا في الشجار وتمسك كل منهم برأيه وراحوا يتجادلون ويتهم كل منهم الآخر بأنه كاذب ومدع والواقع أن الأول قد أمسك بأقدام الفيل والثاني أمسك بخرطومه والثالث أمسك بذيله. لذا فليس فيهم أحد كاذب، ولكن كل منهم قرر حقيقة وصفه وفقا لرؤيته واستنتاجه، ولكن المشكلة أن كلا منهم اتهم الآخرين بالكذب، ورفضوا بأن يؤمنوا ويقتنعوا بأن الحقيقة ربما يكون لها وجوه أخري.

تماما كما يكون للفتوى والرأي اتجاهات وآراء أخرى، لكل منها تفسير يخالف الآخر حول الأمر الواحد، ولعل مثل هذه البديهيات، إيماننا بالحقائق المتعددة، واليقين باحتمال وجود أمور خارج نطاق عقولنا، يمكن أن تكون أقرب للصواب وأهدى إليه، إنها فلسفة تسوق المرء أن يؤمن بالآخرين، وتقتل في نفسه روح التعصب البغيض للذات والأثرة، لأن الايمان بالغير من أسس التعايش الناجح في المجتمعات الناهضة.. علينا أن نحترم عيون الآخرين، ونحلل نظرتهم للأمور، فالمنطق هو ألا نرفض نظرتهم بل لابد أن نفكر فيها وندرسها، وبالقطع سيظهر لنا واقع جديد لم نكن نتوقعه من قبل.

ولقد حاولت أن أتبنى هذه الرؤية عبر هذه المقالات التي اقتبست أفكارها من تأملاتي في النفس والحياة، واستقيتها من التاريخ والأدب والعيش مع الآخرين، وهي أمور كلها نظن فيها أمورا، بينما هي على خلاف ظنوننا، لها حقائق أخرى.. لا تلبث إلا أن تكشف عن نفسها، لنكتشف أننا كنا مخدوعين أو واهمين.

حاتم إبراهيم سلامة

الرياض ١٣/ ١٠/ ١٤٤٠هـ

المستقبل بيد الله

دائمًا ما أوقن وأردد: إن المستقبل بيد الله تعالى، وأن القلق منه أوعليه، ما هو في حقيقته إلا ضعف إيمان بالله، فما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فالمهم أن تعمل.. حتى ولو على قدر المستطاع، فلست مطالبًا أن تُكلف نفسك فوق طاقتها أو تفعل المعجزات، فالمهم أن تعمل فقط والباقي على رب الخلائق.

ورحم الله والدي.. فقد كان قلقًا علي لعدم تفوقي الدراسي، وكان يفكر في إخراجي من التعليم، والبحث لي عن مهنة أمتهنها لدى بعض أقربائنا.. لكن الأمور صارت على غير ما رتب وانتوى.. مع قليل من الصبر.. وكان من معارفي رجل نجح ولده في الثانوية العامة، ولكن مجموعة لم يكن كبيرًا فازداد الرجل هما لولده ومصيره، ودخل الفتى كلية متواضعة، لم تكن مما نسميها اليوم بكليات القمة.. وظن الرجل أن ولده لن يكون له مستقبل يُرجى من وراء التعليم، فما هي إلا شهادة ينالها ويخرج إلى الحياة عاطلا مثله مثل كثير من الشباب! ولكن الأيام كانت تخبيء شيئًا مختلفا وصورة أخرى! فالفتى يجتهد في دراسته، ويحصل على أعلى الدرجات، ويكمل دراسته العليا ويصير أستاذًا جامعيًا يشار إليه بالبنان.!

ومثل هذا الوالد الذي كان يتيه فخرا لأنه استطاع أن يدخل ولده كلية الشرطة، ليكون ضابطًا تقوم له الدنيا ولا تقعد.. وفي إحدى المطاردات يسقط مقتولا برصاص المجرمين وتنتهي حياته، وينتهي الفخر، وينتهي المستقبل.. ورغم أنها انتهت بشرف الشهادة، إلا أنها انتهت ولم يعد هناك ما كان يرجوه الأب من مستقبل دنيوي مأمول.. فالقدر خبأ له مستقبلاً أخرويًا.!

أرأيت كيف أن المستقبل بيد الله، ولا يعلمه ولا يرتبه أحد غيره سبحانه.؟!

وأمامنا قصة جديرة بالتسجيل من حياة الصحفي الكبير (موسى صبري) الذي نجح في ليسانس الحقوق بتفوق، في ظل ظروف مادية صعبة، ولجأ إلى (طه حسين) ليتوسط له في تعيينه بالنيابة العامة، واستقبله طه حسين ورحب به، وتوسط له عند وزير العدل وقتها

(صبري باشا أبو علم) لتعيين هذا الشاب النابه في النيابة العامة، ولم يصدق موسى صبري أن يحدث ذلك، لأنها من الوظائف المقصورة على أبناء الطبقة الراقية وأبناء المستشارين، ولكن هذا ما حدث بفضل وساطة عميد الأدب العربي.. وفي الليلة التي يُصبح فيها موسى صبري ماثلا أمام النائب العام ليدلي باليمين القانونية، هجم البوليس السياسي على منزله واعتقلوه بسبب نشاطه السياسي.. دخل ضباط القلم السياسي بعد طرق الباب بشدة، وفتشوا البيت وعثروا على نسخة من الكتاب الأسود الذي ألفه مكرم عبيد ضد حكومة النحاس، وجدوه مخبوءًا في سيفون دورة المياه، وبجواره مسودات خطب سياسية كان قد ألقاها في الجامعة، يندد فيها بفساد الحكومة الوفدية.. وكان والده قبلا قد حضر من أسيوط، ليشاركه هذه المناسبة الموعودة، وليفرح بثمرة فؤاده، ولما حدث ما حدث، صدم الوالد لكنه كان كبيرًا وصامدًا وجلدًا، حيث قال له: لا تفكر في شيء يا ولدي إلا أنك تفعل ما يرضي ضميرك.. ثم اقتيد إلى معتقل الزيتون ليقضي به عاما كاملا، وتفوته تلك الفرصة الذهبية، والمنصب الراقي الذي كان ينتظره، ليكون وكيل نيابة كبير المقام وجيه الرتبة، لقد كانت وظيفة يُبكى عليها بمرارة وحسرة ما يعيش من أيام حياته.!

ويبقى السؤال: هل شُرد (موسى صبري) وضاع مستقبله؟

لقد كانت الأيام تخبئ له ما هو أعظم من ذلك وأقدر، ليصير الكاتب الأول في مصر، وأكبر أعلام الصحافة وأعلى الأقلام على الساحة الصحفية، والمقرب من أصحاب القرار، والمحظي عند رئيس الجمهورية نفسه، بل كانت مكانته أعلى وأكبر من وزير العدل، ومن رئيس الوزراء ذاته.

فهل نتعلم أن المستقبل بيد الله سبحانه، هو وحده من يخطه ويرسمه ويقدره لصاحبه؟ فقط ما علينا إلا أن نبذل جهدنا وطاقتنا.

كما أن العملية الدراسية ليست هي الحكم النهائي على مصير إنسان، فكم كان هناك طلاب متفوقون ثم خابوا وخائبين تفوقوا.. ولو أن كل إنسان استرجع ذاكرياته للوراء، لتذكر طلابا كانوا يصاحبونه في بعض مراحله الدراسية، ليجد العجب العجاب، فمنهم المجتهد

الذي تبلد، ومنهم البليد الذي اجتهد، بل ليجدن العديد منهم قد اختلفت نهاياته عما كان يظن ويتوقع له أن يكون.!

بعض الكتاب يتندر بهذه الوقائع ويذكر هذه المفارقات فيقول: "كثير من الزملاء أصبحوا محامين ومهندسين وأطباء وأساتذة في الجامعة ومستشارين، ولكن العجب أنني لم أجد أحدًا من النوابغ الذين كنا نغبطهم على تفوقهم الدائم في الامتحانات، وعلى إجاباتهم على كل سؤال للمدرسين، وعلى حفظهم الدروس ظهرًا عن قلب، لم أجد واحدًا منهم في الصف الأول من الحياة!

وأغلب الظن أن امتحانات الحياة أصعب من امتحانات الدراسة، وأننا نحتاج في الحياة إلى ذكاء وفكر وابتكار أكثر مما نحتاج إلى حفظ قواعد اللغة الإنكليزية وتصريف الأفعال باللغة الفرنسية، وأنه لا يكفي أن تعرف نظريات الهندسة عن ظهر قلب، لنعرف نظريات الحياة الأكثر صعوبة والأكثر تعقيدًا!

وأذكر أنني منذ سنوات، كنت أزور أحد الوزراء في مكتبه، واستقبلني ساعي عجوز يرتدي بذلة صفراء رثة، وصافحني بحرارة وصافحته، ثم سألني: هل تتذكرني؟ قلت أتذكر وجهك! قال أنا فلان كنت تلميذا معك في مدرسة رقي المعارف الثانوية بشبرا!

وتذكرته وتذكرت اسمه، وتذكرت أنه أول الفصل في الهندسة والجبر والحساب! وتذكرت أنه كان يحل المسائل الهندسية التي كنا جميعا تعجز عن حلها!

وصعقت لأنه كان يعمل فراشا!"

ولعل التفسير المناسب لهذه القضية أن أغلب الطلاب والتلاميذ يستخدمون في بداية حياتهم ملكة الحفظ، فهو يحفظ كل شيء خاصة وأن السنوات الأولى من التعليم، تستدعي التلقين في باديء الأمر، فإذا انتقل للمراحل الأعلى وجد موادًا تتطلب الفهم والوعي، وهنا تحدث الانتكاسة ويتوقف تفوقه.

وكما يتعجب الإنسان من هؤلاء المتفوقين الذين ينحدرون من أعلى إلى أسفل.. تبقى الحيرة الأكبر والعجب العجاب، في هؤلاء الراسبين الذين تفتقت أذهانهم، وانحرف مسار حياتهم

من القاع إلى القمة، وصاروا في الحياة شيئا مهما ونافعا وذا قيمة، ومنهم من صار صاحب منصب أو نفوذ أو درجة علمية راقية.. فهذا ينستن تشرشل كان طالبًا بليدًا، ثم أصبح أهم رئيس وزراء فى تاريخ بريطانيا، ونال جائزة نوبل فى الأدب، وتوماس أديسون مثلا (وهو مخترع أمريكي له أكثر من ١٠٠٠اختراع) طرد من المدرسة بحجة أنه "غير قابل للتعلم"، وأينشتاين (صاحب النظرية النسبية) كان فاشلا لدرجة رسوبه في امتحانات المعهد العالي في زيورخ، ومايكل فارادي (مهندس بريطاني اخترع الدينمو) كان بليدًا لدرجة عدم النطق خلال سنواته الدراسية كلها، وكان تشارلز داروين، يهرب من المدرسة ليتسلق الأشجار ويراقب قوافل النمل.. أما لويس باستير (مكتشف الجراثيم وطريقة البسترة) فكان كثير السرحان، لدرجة صنف كمريض بالذهان.

لعله خير!

ما أعجب هذا الإنسان وهو في قمة غضبه وسخطه وتذمره، حينما لا توفقه الأقدار لشيء يريده.. إنه قد يرى نفسه فاشلا، أو يرى نفسه محرومًا، فيقبع تعيسًا أسيرًا للوهم بالحظ النحس والمصير البائس، وقد ينظر للناس من حوله ليقول: لماذا تميزوا عني ونالوا مالم أنله، ونجحوا فيما رسبت فيه؟!

وها هو أمام خسارته يتحول إلى طاقة كبيرة من اليأس والقنوط، ويظل يبكي حظه العاثر، وسوء طالعة وتردي مصيره.

يرى في نفسه وحول نفسه، كل هذا السواد، وكل هذه العتامة القاسية، بينما الحقيقة غير ذلك، وما خبأه الله تعالى له في عالم الغيب، بسبب ما ظنه أنه الحرمان والفشل، تكمن فيه السعادة الكبيرة والهناء البالغ، والتي سيرى بواعثها فيما بعد، ليخجل ساعتها من قنوطه القديم، ويعلم كم كان جاهلا قاصرًا ضيقًا مسرفًا في تذمره وسخطه.

أما هؤلاء الأشخاص الذين ظن يومًا أنهم من تسببوا في خسارته وحرمانه وتعاسته، فإذا هم بعد زمن طويل، يتبين له أنهم كانوا السبب المباشر فيما حققه من نجاح وتقدم! ويتمنى لو

لقيهم حتى يقبل أياديهم ويشكرهم، أو يكافئهم على موقفهم الذي وجهه إلى طريق آخر جنى منه الظفر والنصر والذخر.

ويبقى التساؤل: لماذا لا يمنح الإنسان نفسه فرصة للتفكير والتريث والاحتمال، بقدوم بعض الخير في ثوب الشر، وفي ظل هذا الحزن البالغ، والكمد الذي لا حدود له، والذي أوشك بهمه أن يأكله ويقضي عليه لفرصةٍ فائتة، أو عطيةٍ لم ينلها، أو مكرمة لم تكن من نصيبه؟!

لماذا لا يوجد التقدير باحتمال آخر لمصير مغاير، يحمل الفرح بدلا من الحزن، والسعادة بدلا من الهم، والبهجة بدلا من التعاسة؟!

تحت إشراف الدكتور (منصور فهمي) كان الطالب (أنيس منصور) يدرس في قسم الامتياز ويتقاضى مكافأة (٦) جنيهات، وحاول أن يزيد دخله، فتقدم لشغل وظيفة مذيع بالإذاعة، واجتاز الاختبارات الأولية بنجاح، وبقي الاختبار الأخير حتى يتحقق حلمه في أن يتردد اسمه على أسماع الملايين، وقبل أن يأتي دوره، وقف زميل له في الامتحان، وكان محررًا في الإذاعة يلقي بعض النصائح والإشارات، وكانت نصيحته الأولى أن يخفض من صوته قدر استطاعته، لأن حساسية الميكروفون سترفع منه، ونفذ ما اقترحه زميله وسقط في الاختبار، لقد تألم أنيس لهذا الرسوب، وهو الذي لم يعرف الفشل في حياته من قبل، كما زاد ضيقه حينما عرف أن هذه النصيحة التي أسداها له ذلك الناصح، كانت مقلبًا لأنه لا يريد غيره أن يفوز بهذه الوظيفة، وكان يخشى منافسته لكنه سقط كذلك في الاختبار.

وبعد هذه التجربة التي تألم لها أنيس، وظن يومها أن طموحًا وأملا كبيرًا يريده قد ضاع وتبدد، كان يضحك كثيرًا من حزنه القديم ويقول: " إنني لا أندم الآن على هذه التجربة، بل إنني أشكر صاحب المقلب من حيث لا يدري، وأشكر الظروف التي دفعته إلى طريقي، وإلا لكنت الآن مذيعًا يشغل وقتي عمل متصل يبعدني عن حبيبتي الأولى والأخيرة الكتابة الأدبية.

وهكذا نعيش في دوامة التناقض لنقر بجهلنا وقصورعقولنا، عن إدراك هذه الحكمة الكبيرة، ففي المحنة تأتي المنحة ولكننا جاهلون.

قرأت مؤخرًا عن حياة أمير الشعراء شوقي رحمه الله، حينما وقعت الحرب العالمية الأولى، فماجت الدنيا واضطربت، وانضمت تركيا للألمان، فعمدت إنجلترا للإطاحة بنظام الحكم في مصر الموالي للسلطان، فأعلنت انتهاء حكم الخديوي عباس حلمي الثاني، وأصدرت حكم النفي على كل المقربين منه من رجاله وحاشيته، وكان من هؤلاء المقربين الشاعر المرموق (أحمد شوقي) بك أمير الشعراء، الذي كان تربية القصر، وشاعر العرش، وينظر إليه الجميع على أنه شاعر البلاط الملكي، ومن ثم اعتبره الانجليز من أهم الشخصيات الي لابد أن يصيبها أمر النفي خارج البلاد، فأمروه بالرحيل إلى إسبانيا، فجمع عائلته، واصطحب مكتبته وسائر مرافقه، وغادر مصر إلى برشلونه، فاستقر بها وأدخل أولاده في المدارس المرموقة، واستقر به الحال والعيش، واندمج في البيئة المحيطة به، وهنا وأمام هذا الفراغ في مجتمع ودنيا غريبة عليه، كانت فرصة ساقته ليعكف على دراسة كتب الأدب العربي، فاستوعب منها مالم يكن قد استوعب من قبل، وطالعها كلها حتى أنه كان يقول: "إنه ليس في الأدب العربي كتاب لم أستوعبه خلال السنوات التي قضيتها منفيا في إسبانيا.. وساعدني على ذلك طبيعة الجو اللطيف الذي يشبه جو الإسكندرية، وجمال المناظر التي تحاكي ضواحي الآستانة في رشاقتها ونظامها.

يقول (شوقي) وهو يتحدث في حواره بمجلة الهلال عام ١٩٢٩م عن تلك الفترة، وأثرها على تكوينه الأدبي، ونبوغه الشعري: "في هذا الجو وفي هذا الوسط الكريم، نشأت نشأة أخرى في الادب العربي واستأنفت دراستي له بعناية واهتمام، وتوفرت على رياضة الذهن في ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها فحصلت على ثروة لم أفز بها من قبل"

ويرى بعض الباحثين أن هذه الرحلة، كانت السبب الكبير في تطوير شعر شوقي ورؤاه، وجنوحه إلى مناح أخرى، لم تهدم القديم أو تتبرأ منه، ولكنها كانت إضافة جديدة لهذا الشاعر العملاق، فإن ما قاله في مطالع شبابه، وكان مستمدًا من بيئة صوفية دينية، كنهج

البردة وشعر المديح، أضيف له طرح آخر جديد، في مراحل نضوجه وتقدمه العمري، حين كتب في سن الستين، شعره الغرامي والوجداني والعاطفي الرائع، وصور غراميات كليوباترا وحياتها وصور جنون قيس وهيام ليلى.!

نعم كانت هذه الرحلة أو هذا النفي القسري عن وطنه وقومه التي يسرت له وحدة، كانت هي الحادث الأخطر في حياة شوقي على أدبه وفنه وإبداعه وشخصيته كلها.! وكأن الاستعمار بهذا العقاب قد خدم الأدب والشعر، وزان وأصقل بظلمه وصلفه وطغيانه.. بيان أمير الشعراء.

حتى يعرفني الناس

كان النابهون قديمًا إذا أرادوا أن يلفتوا أعين الناس وأذهانهم لهم، لا يملكون لهذه الغاية، غير مواهبهم وعلمهم وقدراتهم، لكننا اليوم نرى من إذا أرادوا لفت أنظار الناس لهم فعلوا أمرين:

١- إذا كان رجلا ألحد في دين الله، وشكك في آيات القرآن وأول ثوابته على غير حقيقتها ومقاصدها.. سعد الدين الهلالي نموذجا.

٢- إذا كانت امرأة عرت جسدها وأظهرت مفاتنها.. رانيا يوسف نموذجا.

وهؤلاء يتمثلون لي، كهذا الاعرابي الذي سجل التاريخ موقفه الإجرامي من أجل الشهرة..

روى الإمام ابن الجوزي حادثة وقعت أثناء الحج في زمانه؛ إذ بينما الحجاج يطوفون بالكعبة، ويغرفون الماء من بئر زمزم، قام أعرابي فحسر عن ثوبه، ثم بال في البئر والناس ينظرون، فما كان من الحجاج إلا أن انهالوا عليه بالضرب حتى كاد يموت، وخلّصه الحرس منهم، وجاؤوا به إلى والي مكة، فقال له: قبّحك الله، لِمَ فعلت هذا؟ قال الأعرابي: حتى يعرفني الناس، يقولون: هذا فلان الذي بال في بئر زمزم!

فلا تستهين أيها القاريء بجملة (حتى يعرفني الناس!) فهي والعياذ بالله مرض عضال، لو ابتلي به الانسان، فإنها يأتي على كل شيء في حياته، أو أغلى شيء في حياته، وعلى رأسها دينه وعرضه! نعم قد يُضحي من يبتلى بهذا المرض، بدينه وعرضه، وقد قيل: إن الشهرة جنون.

هناك قوم لا يعرفون كيف ينامون، لو مر يوم أو يومان أو حتى أسبوع دون أن يتناول الناس ذكرهم ويرددون اسمهم.. وكم ينتشهون وتغمرهم السعادة وهم يسمعون اسمهم يتردد في التلفاز والفضائيات، أو تذكره الصحف، ويتناول الناس ذكر قضاياهم وأحداثهم ومواقفهم وأقوالهم.

وفي هذه الفترة الحرجة التي تمر بها مصر، نجد كثيرا من بنيها أصيب بهذا المرض، الذي أفقده عقله وصوابه، وتكون المصيبة كبيرة لو أصيب بهذا المرض من يعانون ابتداء من هشاشة دينية وضعف الوازع الديني، فإنهم ساعتها ينتجون أقبح ما تسمعه الآذان من تطاول على الدين والشريعة، غير هيابين لحرمات الله أو معظمين لشعائره.

يقول الأستاذ أنور الجندي: " كانت السياسة والحزبية والصحافة من العوامل التي تخلق الشهرة لأقل الناس إجادة ومكانةما دام له قلم جارح، ولقد كان في استطاعة أي ناعق أن يطلق عبارة مثيرة معارضة للدين أو للتقاليد والعرف العام ، فتدوي باسمه أياما طويلة فيصل إلى قدر من الشهرة لا يستطيع أن يبلغه من أمضى أربعين عاما في الكتابة الرصينة"[1]

والحق أن سباق الشهرة محموم، ويلجأ أصحابه لإحداث كل الغرائب والرذائل والموبقات، حتى ينالوا درجة في هذا التنافس القبيح، وهناك من يدمن المخالفة حتى يكون مميزًا معروفًا، ويسير بين الناس بمبدأ خالف تعرف، فالمهم المعرفة وليس الغاية والوصول للحقيقة.

وهنا نبذة تستحق الإشادة، وهي أن هذا الأعرابي الذي بال في زمزم، قد نال ضربًا مبرحًا من عموم المسلمين، حتى كاد أن يفقد معه حياته، لكننا اليوم نرى أمثاله من عباد الشهرة يُمنحون أعلى الأوسمة والنياشين والدرجات والوظائف الرفيعة.!

[1] – شهادة العصر والتاريخ– أنور الجندي

وقف عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) خارج المدينة يترقب أخبار معركة نهاوند، ولما جاءه البشيرُ يُبشّره بنصر المسلمين، سأله عمرُ عن الشهداء، فذكر له عددًا من أعيان الناس وأشرافهم ومشاهيرهم، ثم قال لعمر: (وآخرون من أفناد الناس «أى ضعفائهم» لا يعرفهم أمير المؤمنين).. فأخذ عمرُ يبكى ويقول: (وما ضرّهم ألا يعرفَهم أمير المؤمنين؟! لكنّ الله يعرفهم، وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر؟)

هل تتخيل أن الشهرة ترتبط بالأخلاق والضمير والقيم وسجايا المجتمعات وطبائع الشعوب؟ نعم.. فإذا كانت عقول الناس محترمة واعية مهذبة قيمة، لا يشتهر فيها وبينها إلا كل قيم محترم رسالي، وإذا كانت عقول الناس هشة تافهة خابية، فإنها لا يشتهر بينها إلا كل ساذج باطل تافه مريض شاذ ناقص.! فالمجتمعات المحترمة الواعية، لا تقيم وزنا للترهات، ولا تحفل بالهرفيات، ومن ثم لا تجد لهذا التَخَرُّص والحُمْق والخَطَل والخُرْق، تُربة ينبت فيها، لأنها بين عقول وأمم واعية، تلفظ زورها وإفكها.

ومن ثم.. حق لنا أن نقول: لا نعيب مرضى الشهرة قبل أن نعيب أقوامهم ومجتمعاتهم.. بل لك أن تتحسر اليوم على مجتمعاتنا وشعوبنا؛ التي ليست من هذا ببعيد، والتي باتت تبحث اليوم عن كل غريب، ولا يرن في آذانها إلا كل تافه ضحل شاذ، فهي اليوم لا تبحث عن العلماء الجادين المخلصين الساطعين السامقين، الذين يلهمونها الرشد والهداية وطرق الاستقامة، بقدر ما يبحثون عن العلماء الخائبين التافهين المضلين، الذين يملؤون حياتها بالغريب من الأقوال والساقط من الآراء.!

كذلك في عالم الأدب لا تبحث ولا يصدع في صداها، أدباء الذوق العالي والبيان الفريد، الذين يجسدون ضمير المجتمع، فيما يكتبون ويصورون أمراض الأمة ويعالجونها بأقلامهم، بقدر ما يهللون للأدب المنحط المنحدر، وأدبائه الشاذين الساقطين، الذين لا يقدمون إلا السفه من الفنون والقصص أوالروايات الجنسية الداعرة.

لا تبحث أمتنا اليوم ولا يسود فيها، أولئك المفكرون العظام الأجلاء الذين يمثلون العقل الرصين، والفكر المستقيم والحكمة البالغة، التي يجسدون بها مسار الأمة وطريق نجاتها،

ويقودونها بأفكارهم، لتحتل مكانتها الفريدة بين الأمم، بقدر ما تفسح الميدان والإعلام لأدعياء الفهم، ولصوص الفكر، الذين يشوهون تاريخنا ويلوثون هويتنا، ويهدمون قيمنا وقممنا.. صرنا لا يطفوا على السطح إلا المبتذلين الذين لا يقدمون إلا كل مشبوه رخيص.!

إن مرض الشهرة.. لا يصيب عالم الفكر والأدب وحده، وإنما يصيب كل مناح حياتنا وتوجهاتنا وغاياتنا، ففي دنيا الفن مثلا، لا تجد ذلك الفن الهادف القيمي الذي يعكف على توعية المجتمع، وتعليم الناس وتربية أذواقهم، وإعلاء أفهامهم، حين تغزوه، أفلام ومسلسلات هابطة، تجسد حياة البلطجية والصيع والحثالة والشوارعية، وتجعل منهم أبطالا أفذاذًا، وتطلق عليهم ألقاب الأسطورة والبلطجي، وتصورهم أبطال الزمان وشجعانه، فيهيم بهم الناس، وتشتهر سيرتهم، ويشب الجيل وكل غايته أن يكون بلطجيًا كمحمد رمضان، أو فتوة يغلق الشوارع بسنجته وسلاحه، ويُصيب بالرعب كل مكان في موطنه، ويجسد ما شاهده في أرض الواقع! وعلى جانب الخلق والعفة، تشتهر تلك التي تُعري جسدها، وتكشف عن مفاتنها، وتتعمد طرق الإغراء، حتى تصير حديث الدنيا وكلام الشارع، وكلما كشفت أكثر، كلما شاع أمرها أكثر وأكثر.! مثل هؤلاء.. هم من يشتهرون في مجتمع فارغ أجوف.

رحم الله الإمام الشافعي حينما قال:

وَلَولا الشِعرُ بِالعُلَماءِ يُزري لَكُنتُ اليَومَ أَشعَرَ مِن لَبيدِ

وَأَشجَعَ في الوَغي مِن كُلِّ لَيثٍ وَآلِ مُهَلَّبٍ وَبَني يَزيدِ

وَلَولا خَشيَةُ الرَحمَنِ رَبّي حَسِبتُ الناسَ كُلَّهُمُ عَبيدي

كان يمكن للشافعي لو كان عابدًا للشهرة، أن يبلغ بمواهبه مبالغ لا يصل إليها إلا من ضعفت في نفسه خشية الله.. لكن أمثال الشافعي يعبدون الله، وليسوا من عباد الشهرة الزائفة.!

إن أصحاب القيم لا تُبهرهم الشهرة، وهم أعقل الناس وأصفاهم وأنبلهم وأسماهم، حين ينكرون ذواتهم في سبيل رفعة بلدانهم ومجتمعاتهم.

بين المناصب والمواهب

من الخطأ الكبير والظلم البين، أن يظن صاحب الموهبة أن قيمته في المنصب، وأن رفعته في الجاه والسلطان، لأنه بهذا يجهل قدر موهبته التي هي أعلى بكثير من كل العروش والمناصب، وما أروع ما قال فولتير: (إذا لم يكن على رأسي تاج، أليس في يدي قلم؟!).

كذلك من الخطأ البالغ، أن تمنع أصحاب المواهب عن تنمية مواهبهم، والعيش لها، والإخلاص لغايتها، هذا ما يفعله كثير من الحكام حينما يقتنصون العلماء والأدباء، فيولونهم المناصب والمراكز، ويشغلونهم بأمور السياسة والإدارة، حتى تموت مواهبهم ولا يكون لعلمهم أثر وضياء بين الناس.

وبعض الحكام حينما يزعجه عالم أو كاتب، ويرى منه خطرًا على مكانته وعرشه يلجأ إلى استوزاره وتنصيبه في وظيفة مرموقة حتى يخذي عينه، ويسكت لسانه ويغرقه في منظومته ويكون جزءا منه فلا يملك الاعتراض أو الشجب.!

مازلت أتذكر الدكتور (علي الدين هلال) حينما كان يقدم برنامج كلام في السياسة، وكم كان فيه رائعا متميزا، فلما تقلد الوزارة ذبح نفسه، وأهان مقامه، وسمي بوزير الصفر.! بل تسببت الوزارة في القضاء عليه نهائيا كمفكر ومحاضر وما عاد له ذكر أو ضوء.!

لقد كان أبو حنيفة من أغزر الناس علمًا، لكنه كان أكثر الناس رفضًا للمناصب، لعلمه أنه لن يجد معها سعادته الحقيقية في تبليغ رسالته كإمام يُعلم الناس ويصلح حياتهم.!

والعقاد كان يرى نفسه أعلى من أي منصب، وكان يعلن أن المنصب يقلل قيمته ولا يعليها، لأن قيمته في القلم وحده.

الشيخ الشعراوي رحمه الله كان من أفطن العلماء الذين عرفوا طريقهم الصحيح، حينما قدم استقالته من وزارة الأوقاف، وأخلص للعلم والدعوة، فنال المكانة الطيبة في قلوب الناس.

وأنيس منصور اقتنصه السادات مدة سبع سنوات، ليكون رفيقه ومستشاره، وفي هذه السنوات السبع لم يستطع أنيس أن يخرج للنور كتابًا واحدًا، وهو الذي كان يُخرج في العام الواحد كتابين أو ثلاثة أو أربعة.!

ومن العلماء والأدباء من نجح في أن يُسخر وظيفته إن كانت لائقة، في دعم علمه وتحفيز أدبه، فكانت لا تمنعه أن يقرأ ويكتب ويدرس ويتعلم، والذين تتوافق وظائفهم مع مواهبهم أراهم من أسعد الناس حالا وأكثرهم نجاحًا، ولا شيء في أنفسهم أثمن من هذه النعمة العظيمة.

تخيل رجلا ملأ الدنيا علما وفقها، ومنح المكتبة الإسلامية جملة من الكتب القيمة التي فاقت الثلاثين كتابًا من أمهات كتب الدين، في مجالات متنوعة، وهو القاضي عياض رحمه الله الذي قال عنه ابن العماد الحنبلي: "كان إمام وقته في شتى العلوم وصنف التصانيف البديعة، عديم النظير، حسنة من حسنات الأيام شديد التعصب للسنة"

وقيل عنه: "إن مقامه في مقام البخاري ومسلم والأئمة الأربعة"

كان يتقلد مناصب القضاء، ولكنه كان يعشق التدريس وتلقين العلم لطلابه في المساجد ومجالس العلم ومدارسه، وبلغت كتبه رضي الله عنه أكثر من ٣٠ كتابا هي التراث الباقي منه، والناطق بعلمه، وبعضها مفقود، ولكن لابد أن تعلم أن هذه الكتب الفريدة النافعة، ما ألفها إلا في الفترة التي كانت بين إعفائه من قضاء غرناطة ببلاد الأندلس سنة (٥٣٢) هـ، وبين إعادته إلى قضاء سبتة سنة (٥٣٩) هـ، حيث استمر فراغه من مهمة القضاء مدة سبع سنوات، حدث فيها هذا الخير العظيم، وتفتق فيها عن هذا الابداع الكبير..

وهو رضي الله عنه قد عرف ذلك من نفسه وشعر به، ففي كتابه الإكمال، يذكر أن محنة القضاء التي أثقلت كاهله وشغلت باله، ومنعته من تحقيق رغبة تلاميذه أن يؤلف لهم هذا الكتاب، فهو يقول:

" إلى أن من الله تعالى بإحسانه بحل تلك القلادة وزوالها، وفرغ البال، من عُهدها القادحة وأشغالها، فتوجه الأمر وانقطع العذر وانبعثت همة العبد الفقير بمعونة مولاه وتوفيقه إلى الإجابة، راغبة لمولاها جل اسمه في المعونة وتوخي الإصابة"

كان رحمه الله يعتبر القضاء محنة، ومسؤولية كبيرة ألقيت على كاهله، وكان يختلس بينها الأوقات الفارغة، التي يستطيع فيها أن يؤلف كتاب العظيم (الشفا).

وحينما يتأمل الإنسان لهؤلاء الأعلام، الذين استهوتهم المناصب، فإنه يراهم قد أضروا بعلمهم كثيرًا، فرجل كالشيخ أحمد الباقوري رحمه الله، تعلق بالمناصب منذ باكر عهده مع انقلاب يوليو (٥١) وصاحب رجاله، حتى لفظه عبد الناصر، ولم يقدر له مكانة ولا صداقة ولا قربًا.! لمجرد هفوة عارضة، لم يكن للرجل أي ذنب فيها.. ولم يتبق للباقوري إلا تلك الأحاديث التلفازية المرئية، التي سجلها وتذاع بين الحين والحين.. لتظل العمل الباقي والأثر الخالد الذي تبقى من حياته.

من الجيد أن يجاهد العالم ويناضل من أجل أمته ونفع بلاده، والسعي لمصالح المسلمين، لكن اللبيب الرشيد، هو الذي يترك لنفسه أثرًا يُدر عليه كل يوم من الثواب الجزيل والأجر المثمر، كلما ذكره ذاكر، أو قرأ له قارئ، أو تصفح فكره متصحف.

ولا يشترط أن يكون هذا الذكر في كتاب أو فكر، ربما يكون في عادة أو سنة أو قانون، أو تقليد أو حركة أو جماعة خلفها من بعده، تقوم برسالة سامية عظيمة بين الناس حتى تقوم الساعة، انظر كيف كان أثر الأئمة جمال الدين ومحمد عبده وحسن البنا، من بعدهم وهم الذين لم يهتموا بالتأليف قدر اهتمامهم بهموم الأمة وبث أفكارهم الإصلاحية.؟!

ولا يكفي أن تكون مبدعًا تنفع نفسك بمواهبك، وتمتع من حولك بإبداعك، وإنما لابد أن يمتد نطاق الموهبة لمن بعدك وأن تجتهد أن يمتد أثرك في الحياة.

وكم أغبط هؤلاء الذين تصدح أصواتهم الندية كل يوم عبر إذاعة بالقرآن الكريم، يرسلون إلى وجدان الناس آيات الله وهي مغلفة بأصواتهم الندية الشجية.. ما أسعدهم وما أسماهم وما أغزر ما يتحصلون عليه من ثواب عظيم.

وحقا كما قيل: يمر الرجل ويبقى الأثر.

كما أنه محظوظ ذلك الذي جعل الله أثره في منصبه، حينما يملك اتخاذ قرار ناجح، تسعد به البلاد والعباد، فليست المناصب كلها لهوًا أو شرًا أو قاتلة للموهبة والإبداع.

الرجل الذي جامع أمه!

جاءني أحدهم يومًا مفزوعًا، وأخبرني أنه رأى في المنام شيئًا خطيرًا، وأنه منذ أن استيقظ من نومه، وهو في غاية القلق والحيرة والعذاب... لقد رأى في المنام أنه يُجامع أمه، وأنه استيقظ على شر حال ولا يعرف معنى هذا الحلم البشع، ويريد تفسيره حتى يتجنب ما يشير إليه من شر وبلاء.! أما أنا فأصابني وجوم شديد واستغراب عجيب، فلأول مرة أسمع عن هذا الحلم، وقلت في نفسي: أيمكن أن يرى الإنسان مثل هذه الأحلام في المنام؟ أيمكن لهذا الخيال أن يبلغ غيه، فيصل إلى هذه الدرجة من الأوهام؟ ولم لا؟ وهو عالم لا يسيطر عليه العقل أو يحكمه المنطق.. ومن حقه أن يأتي بأعجب الأعاجيب دونما حسيب أور رقيب.. وهنا قلت لزائري: هون عليك، وتعالى ننظر في كتابي ابن سيرين والنابلسي في تفسير الأحلام، فلعل هناك شيئا يهدينا في حيرتنا ويخفف ما بك من حيرة عظيمة.! أو يشير لحلم قريب من هذا الحلم الذي حمل هذا المشهد المريع.!

وافتتحنا كتاب (ابن سيرين) الذي يُعد من الكتب التي تصيبني بشعور غريب حينما أقرأه، حيث يخيل إلى وأشعر أنني أعيش في العصور الوسطى، أو أنني أقرأ كتابًا من كتب الأساطير التي تهيم بي وتأخذني لعالم غير عالمي.! ومع هذا الشعور سرت أبحث أنا وزائري، حتى وجدنا ضالتنا في تأويل هذا الحلم المنكر الملعون! (من رأى في المنام أنه ينكح أمه) ولكن المفاجأة كانت مذهلة.. لقد كان تأويل الحلم مختلفًا تمام الاختلاف عما يوحيه ظاهره من عقوق وتفاصيلة من إثم ومنكر.. لقد أول ابن سيرين هذا الحلم بأن من يرى نفسه ينكح فإنه يبر بها.!

يال العجب.. يبر أمه؟!

ينكح أمه يعني يبرها؟!

لا شك أن عالم الرؤيا عالم غريب الأطوار، فسيح الخيال، متناقض الرؤى، وما أن علم صاحبي حتى استراحت نفسه وهدأ قلبه، ورأيت وجهه وهو يصفو وتنسحب الكآبة منه دفعة بعد أخرى، ثم حمد الله وشكرته، حينما اطمأن بأن الغيب لا يدخر له إلا الخير.!

وبعد هذا الحدث الغريب، تخيل يوما لو أنك صحوت من النوم مفزوعا على حلم رأيت فيه هلاكك، كأن تكون مرضت أو احترقت أو أسقطك أحدهم من فوق جبل عال، ثم تبين لك في النهاية أن هذا الفزع، لم يكن في محله، وأن معنى هذه الأهاويل التي رأيتها لا يدل إلا على نقيضها من صنوف الخير؟!

نعم.. فهذه من طبيعة الأحلام والرؤى، التي تعد من أكثر الأمور التي تحمل أكبر تناقض في حياة الإنسان، كذلك لو رأيت نفسك منعمًا مرغدًا متسيدًا متفوقًا، فلا تفرح كل الفرح، فلعل هذا الابتهاج يحمل في خفاياه أمرًا خطيرًا.!

ولعل هذا الفزع الذي أصيب به صاحبنا هو نفس ما كان يصيب بعض عظماء السلف قديمًا، حتى استبان لهم ما في عالم الأحلام من تناقض بيّن، حينما سألوا من هم به عالمين.!

قال الشافعي رضي الله عنه: رأيت عليًا كرم الله وجهه في المنام فقال لي: ناولني كتبك، فناولته إياها فأخذها وبددها، فأصبحت من نومي كئيبا حزينا، فأتيت الجعد فأخبرته فقال لي: سيرفع الله شأنك وينتشر علمك.!

وقال رجل لسعيد بن المسيب رأيت كأني بلت خلف المقام (مقام إبراهيم) أربع مرات فقال له سعيد كذبت فلست صاحب هذه الرؤيا فقال الرجل: هي لعبد الملك بن مروان: فقال سعيد: يلي أربعة من صلبه الخلافة.!

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: رأيت كأني نبشت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك فسألت بن سيرين، فقال لي: ما ينبغي من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها؟ فقال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك صلى الله عليه وسلم.

والمجال هنا واسع وفسيح، وكثيرًا مما تراه لا يدل على معناه، فإن رأيت قبيحًا في نومك فلا تفزع كل الفزع، فلعله يكون خيرًا وكذلك إذا رأيت ما يسرك فلا تفرح كل الفرح، فلعله يكون شرًا وقد سمعت أحدهم يومًا يقول سعيدًا: لقد رأيت رسول الله في المنام فرد عليه أحد الفاهمين بقوله: ليس هذا دليلا على التقوى والقربى، فربما ترى الرسول غاضبًا عليك أو محزونا من جهتك، وهنا لا يستحق للمرء أن يفرح، وإنما يسارع ليعالج ما أحزن سيدنا وعظيمنا صلى الله عليه وسلم.!

لقد حاولت البحث والتقصي عن مثل هذه النماذج المتناقضة، فكان مما قرأت في شأنها:

-أنه إذا رأت امرأة تسقي الماء، فإنها تمشي بين الناس بالكذب.

وإذا رأى الخبز على المزابل فإنه يرخص.

وقد تسر بالذهب لكنه في المنام لا يُحمد في التأويل لكراهة لفظه وصفرة لونه وتأويله حزن وغرم مال، فمن رأى أنه لبس شيئاً من الذهب، فإنه يصاهر قوماً غير أكفاء، ومن أصاب سبيكة ذهب ذهب منه ماله أو أصابه هم بقدر ما أصاب من الذهب أو غضب عليه سلطان وغرمه.

ومن رأى بيته مذهب أو من ذهب وقع فيه الحريق.

ومن رأى عليه سوارين من ذهب أو فضة أصابه مكروه مما تملك يداه.

ومن رأى أن عليه خلخالاً من ذهب أو فضة، أصابه خوف أو حبس وقيد.

ورأى إنسان كأن عينيه من ذهب فعرض له ذهاب بصره، وقيل من رأى كأنه يستخدم أواني الذهب والفضة، فإنه يرتكب الآثام.

وطول شعر الإبط دليل على نيل الحاجة وصحة دين صاحبه وكرمه.

والقمل يدل على كثرة الأولاد.

وحكي أنّ رجلاً رأى كأنّه مسود الوجه محلوق الرأس يشرب الخمر، فقص رؤياه على معبر، فقال: أما سواد الوجه، فإنّك تسود قومك، وأما حلق الرأس، فإنّ قومك يذهبون عنك ويذهب أمرك، وأما شرب الخمر فإنّك تحوز امرأة.

قال جابر المغربي: من رأى أنه ضربه شخص ولم يدر من ضربه، وما سبب ضربه، فإنه ينال خيرا ومالا ويلبس الجديد.!

وقال الكرماني: من رأى أنه ضُرب بالسياط حتى ظهر أثرها عليه، وسال منه دم، فإنه يصيب مالا وخيرًا وكسوة يظهر أثر ذلك عليه.

ومن رأى أنه ضرب بغير سوط وبقى أثر الضرب عليه فإنه يصيب خيرًا.

والموت في الحلم هو في المنام دال على رد الودائع، أو خلاص المريض من مرضه، أو السجين من سجنه، وربما دلّ ذلك على الاجتماع بالغائب.

ومن رأى أنه مات، ولم يكن هناك هيئه أموات دلّ ذلك على هدم بيت من داره.

ومن رأى أنه مات وحمل ولم يدفن، فإنه يقهر أعداءه.

ومن رأى أنه يمشي في أثر ميت، فإنه يقتدي بسيرته.

ومن رأى أن ابناً له مات، فإنه ينجو من عدو له.

وموت الأخوة يدل على موت الأعداء.

الكلام مع الأموات طول عمر، والأخذ من الميت رزق.

وإن رأى حيًا نام مع ميت، فإن عمره يطول.

والفأر يدل على الرزق، فمن رأى فأرا يلعب بداره، كثر رزقه، لأنه لا يكون إلا في مكان فيه رزق، ومن خرج الفأر من منزله قلت بركته.

وسأل أحدهم أحد المعبرين بقوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمى على قيد الحياة ورأيت أنها توفيت وأنا أبكى عليها، فقال له: موت الحي عامة قد يدل على الحياة الطويلة الهانئة ويدل على الشفاء من مرض وربما دل على التوبة والرجوع إلى الله، ويدل الموت أيضا على علو الشأن والشرف في الدنيا، ومن حمل على أعناق الرجال في النعش دل ذلك على الحياة السعيدة وطول العمر وعلى رفعة شأنه وقهره لأعدائه، وموت الوالدة حفظها الله حياة جديدة لها وبركة فى العمر،

ويدل أيضا على دنيا مقبلة عليها، وعلى الخير وزيادة الرزق. والبكاء إن كان بغير صراخ فقد يدل على الفرج وزوال الهموم والفرحة لك. وأحينا يدل موت الأم على تقصيرك في الصلاة، وتقبّل العزاء فيها بشرى بخير أو أخبار سارة.

عبقريات بلا جامعات!

لي صديق عزيز، قاريء موهوب مثقف، يحب الكتب ويعشق الأسفار -جمع سفر- ويساوي حبها في قلبه أعز الناس لديه وأقربهم منه، وحينما يكون الكتاب بين يديه يشعر في نفسه أنه غني عن الدنيا، وأنه قد ضمن السعادة فيها، وأن حظه من متعتها فاق كل الحظوظ التي نالها من حوله.. ومن فرط ما كانت تمده ثقافته بكثير من المعارف كان له طموحه العريض وأمله الكبير أن يكون شيئًا في عالم الفكر والثقافة، ولكن هذه المُنى كان يكدرها شعور مؤلم لا يفارق خيال صاحبي، ويقض مضجعه ويكاد يذهب ويفسد كل ما يجد من سعادة وحلاوة في الحياة، إنه لا يفارقه في حله وترحاله، وذهابه وإيابه، نومه ويقظته، ولما سألته صارحني بحزنه لأنه لم ينل شهادة جامعية، وأن حظه من التعليم مجرد شهادة متوسطة، لا تؤهله ليحقق ما يريد، حتى أنه إذا اجتمع بأصحابه المثقفين وهم أن يتكلم، سرعان ما يتدارك أمره فيصمت حتى لا يسأله أحدهم ما شهادتك؟ وفي أي جامعة درست.؟!

أدركت مشكلته، ووقفت على ألمه، وأشهد أنه يفوق كثيرًا من المتعلمين وحاملي الشهادات، وأنه أرقى منهم في وعيه وفهمه وذوقه وحبه للكتاب وعشقه للفكر والثقافة.. خاصة في هذه الأيام التي يُعاني فيها كثير من الجامعيين وحاملي شهادات الدكتوراه، أمية مهولة وعقول فقيرة من الفهم والإدراك.!

ومن ثم.. كان لابد أن يعرف ابتداء أن ما يشغله لا تعترف به الحياة التي امتلأت بالعباقرة، الذين تربعوا على قمة العلوم والآداب دون أن يحصلوا على أي درجة علمية تؤهلهم لها، لم يدرسوا في الجامعة ولم يجلسوا لمعلميها، ورغم هذا حازوا قصب السبق فيما سلكوه من

دروب أمانيهم، وحققوا في أنفسهم معنى المعجزة الباهرة، ولم يمثل هذا الحرمان في يوم من الأيام عائقًا أو عجزًا يمنعهم في الوصول لقمة النجاح والريادة وصنع المعجزة الباهرة.

خطأ كبير أن نقيس الثقافة والعلم والفهم والوعي بالتحصيل الدراسي، ونربطهم بشهاداته، فكثير من المفكرين والأدباء والعلماء والفلاسفة لم يكملوا دراستهم، ولم ينالوا الشهادات العلا.. هناك فرق كبير بين العبقرية والتعلم، وبين العبقري والمتعلم، ولقد كان الزمن القديم يعج بالعباقرة مع قلة فرص التعليم، واليوم يقل العباقرة مع انتشار التعليم في كل مكان.!

بعض العباقرة كانوا مخفقين في دراستهم، ولم يكن حالهم في مطالع أيامهم يُنذر بشيء إلا الضياع والتسكع والشرود، وهذا ما ألمح إليه الكاتب الرشيق (فهد الأحمدي) في إحدى مقالاته حيث قال: يمكنني أن أسرد عليكم اليوم قائمة بأكثر من ١٢٠عبقريًا ومشهورًا لم يحصلوا على شهادات جامعية.. ليس هذا فحسب؛ بل انضوى معظمهم تحت تعريف المتأخرين ذهنيًا والفاشلين دراسيًا في سنواتهم الأولى.. فتوماس أديسون مثلا (وهو مخترع أمريكي له أكثر من ١٠٠٠اختراع) طرد من المدرسة بحجة أنه "غير قابل للتعلم"، وأينشتاين (صاحب النظرية النسبية) كان فاشلا لدرجة رسوبه في امتحانات المعهد العالي في زيورخ، ومايكل فارادي (مهندس بريطاني اخترع الدينمو) كان بليدًا لدرجة عدم النطق خلال سنواته الدراسية كلها، وكان تشارلز داروين، يهرب من المدرسة ليتسلق الاشجار ويراقب قوافل النمل. أما لويس باستير (مكتشف الجراثيم وطريقة البسترة) فكان كثير السرحان لدرجة صنف كمريض بالذهان.. أما أحدث الأمثلة فهو بيل غيتس الذي لم يكمل دراسته بجامعة هارفارد، ولكنه ابتكر نظام ويندوز للبرمجة، وهاهو اليوم أغنى رجل في العالم.!"

وفي تاريخنا الأدبي يُبهرنا العقاد الذي تجاوزت مؤلفاته المائة كتاب، يصحبها آلاف المقالات في مختلف المجلات والجرائد، وله في عالم الشعر تسعة دواوين، وترجمت كثير من كتبه إلى العديد من اللغات العالمية، ومنح جائزة الدولة التقديرية فلم يتسلمها كما رفض الدكتوراه

الفخرية من جامعة القاهرة، وكأنه يقول للجميع: أنه فوق الدكتوراه.. كل هذا المجد.. ولم ينل إلا الشهادة الابتدائية التي أهلته للعمل في العديد من المهن والحرف، ولكن حبه للكتب والثقافة، ذهب به إلى القمة السامقة ليصير العملاق العقاد وأحد الأعلام في الفكر والأدب والشعر العربي المعاصر وكان أعظم من دافع عن الإسلام في القرن العشرين.!

أما نده الرافعى، والذي قيل فيه: بأنه أعلم الأدباء باللغة، فلم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية، وبدأ قول الشعر فى سن مبكرة، وأحس فيه أنه يحاكى فحول الشعراء العرب قوة وجمالاً، ثم أصدر الجزء الأول من ديوانه وهو في الثالثة والعشرين من عمره وأتبعه بعد ذلك بالجزء الثانى والثالث، وجمع الأجزاء الثلاثة فى ديوان "النظرات"، وكتب في الأدب المنثور، وصار له العديد من الكتب أهمها "تاريخ آداب العرب، إعجاز القرآن فى البلاغة النبوية، المساكين، السحاب الأحمر، حديث القمر وغيرها"

وكذلك كان العبقري الفريد (محمد فريد وجدي) صاحب دائرة معارف القرن العشرين، فلم يكمل تعليمه بالمدارس وعلم نفسه بنفسه وكان فهامة زمانه وفيلسوفا نادر المثال.. وكان ينشر في الصحف وهو صغير السن، وكانت الصحف تقبل مادته ظنا منها أنها لرجل حكيم مخضرم، كما كانت أولى مؤلفاته وهو في العشرين من عمره.

ثم كان الصحفي (محمد حسنين هيكل) النجم اللامع في سماء الصحافة والإعلام، والرجل الذي كان في وقت من الأوقات يحكم مصر، ويوجه زعيمها في كل كبيرة وصغيرة، لم ينل كذلك من التعليم إلا شهادة مدرسة التجارة المتوسطة.!

وربما يستغرب البعض عندما يعلم أنَّ الروائي الأشهر في أمريكا اللاتينية، وربما الأشهر في العالم لم يحصل على أية شهادات جامعية.. لقد بدأ (ماركيز) رحلته الدراسية عندما حاول أن يدرس الحقوق، لكنَّه ترك الكلية عام ١٩٥٠م ودخل عالم الكتابة، ليبدع أعمالاً أدبية من أروع ما كتب على مستوى العالم، ومرت الأيام وصار أشهر المؤلفين في العصر الحديث وأغناهم، إذ كان يتقاضى خمسين ألف دولار عن لقاء لا يتجاوز نصف ساعة، وكان يملك

سبعة منازل فاخرة في خمس دول مختلفة.. أما ما حصل عليه من الجوائز والأوسمة فمنها وسام النسر ١٩٨١م، ثم جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢م.

ويأتي (ليو تولستوي) الذي يعتبر أبو الأدب الروسي، كما يعده البعض من أشهر الحزناء في التاريخ.. حيث أثر بكتاباته حول المقاومة السلمية في كبار مناضلي العصر الماضي من أمثال المهاتما غاندي والحقوقي الأمريكي مارتن لوثر كينج، ومن أشهر رواياته "الحرب والسلام" و"آنا كارنينا" لقد حاول (ليو تولستوي) دراسة القانون واللغات الشرقية، لكنَّ أسلوب التعليم لم يعجبه في الجامعة؛ فتركها مفضلاً القراءة، ومن ثمَّ الكتابة على طريقته الخاصة حتى كان من أمره ما كان.

أما إرنست همنجواي أشهر أدباء العالم والحاصل على نوبل عام ١٩٥٤م والذي وصف بأنه من أخرج القصة القصيرة والرواية الأمريكية إلى العالمية، لم يكمل دراسته الجامعية بعد الثانوية، حيث شقّ طريقة في الكتابة الصحفية أولاً، ثم بدأ في الكتابة الأدبية، وعاصر العديد من الحروب وكتب عنها، وعمل مراسلاً صحفياً في الحرب العالمية الثانية، وكتب عن الحرب الأهلية الإسبانية روايته (لمن تقرع الأجراس؟)

ودخل (باولو كويلو) المصحة العقلية مرتين عندما كان في السابعة عشر من عمره، بسبب كونه لا يحب الدراسة، كان أبوه مهندسًا يطمح أن يكون ولده على نفس وظيفته، لكنَّ باولو رفض ذلك بشدة ولم يكمل تعليمه، إلى أن حدث التحول الكبير في حياته فأصبح من أشهر كتَّاب الأدب في العالم، وصارت رواياته من أكثر الكتب مبيعًا، حتى أنها تجاوزت مبيعات روايته الخيميائي ٢٧ مليون نسخة، وترجمت إلى أكثر من ٥٦ لغة حول العالم، ووزعت في١٥٠ دولة، كلّ هذا وهو لم يحصل على أية شهادات جامعية.

والنماذج كثيرة كثيرة، ولعل كتاب (عظماء بلا مدارس) تناول الكثير منها، وهو كتاب ممتع تطوف معه في سيرة هؤلاء العصاميين لترى العجب العجاب!

الهلافيت

ما زلت أتذكر ونحن في كلية أصول الدين أن أستاذ مادة الخطابة، أمر كل طالب منا أن يتجهز ليلقي خطبة عملية أمام الطلاب غيبًا ويتخيل نفسه فوق المنبر وأمام الجمهور، وخرج عدد من الطلاب المجدين الذين نتوقع منهم أداءً حسنًا، فتحدثوا قدر استطاعتهم، ثم جاء الدور على طالب لم نعهد عليه إلا الهلس والتهريج والتفاهة والسطحية والهلفتة، لم يكن في بؤرة الضوء وكان منكفئا على نفسه لا تشعر فيه بأي ألمعية؟ ولعل هذه الفكرة عنه قد تكونت من ملامح وجهه أو طريقة حديثه.. ووقف الفتى ليخطب في جموع الطلاب، ونظر بعين ثاقبة لأعلى، ثم شاح بيده يمينا ويسارا، ويالصاعقة من هول ماطالعنا به، لقد كان الفتى من أخطب من رأيت، وأبلغ ما سمعت، وأجسر من بحديثه أُخذت، كان إلقاءه جبارًا، وصوته ساحرًا، وجمله ترن في القلوب قبل الآذان، جلسنا جميعا مشدهوين مأخوذين من جمال كلماته، وجلال بيانه، وروعة بلاغتة وصوته، وفورًا تغيرت النظرة منا إليه، وبعد أن انتهى من الخطبة مدحه الدكتور وأثنى عليه، وأخذنا ننهال عليه بالتساؤلات: كيف ومتى وأين تعلمت وخطبت؟ وللأسف لا أذكر إلا أنه من (دمنهور) وكم تمنيت لو تذكرت اسمه، ولكن النسيان سطى على كثير من الذكريات.

وحكى لي أبي رحمه الله، وكان عظيم الثقافة كما ذكرت، أنه ذهب يومًا لبلدة مجاورة في خطبة ابن عمتي، وكانوا بما فيهم الوالد يرتدون ملابسهم العادية من ملابس الفلاحين القروية (الطاقية والجلابية البلدي) وكان عم العروس، شخصية متعلمة ذات منصب مرموق، أما أهل العريس باستثناء الوالد رحمه الله، فكانوا فلاحين بسطاء طيبين، ومنهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، وجاء هذا العم وجلس أمام الضيوف، ووضع رجلا على رجل، وبدت على وجهه مسحة من كبرياء وتعال ممجوج، وما أن تبادل الطرفان دفة الحديث مع الوالد كولي العريس، حتى شعر الرجل بضآلة حجمة، وقلة وزنه، ورأى أن هذه القدم

المرفوعة في غير محلها.. فأسرع ليوازيها بأختها ويحترم نفسه أمام هذا الذي يخاطبه بما لا قبل له به من الحديث في الأدب والسياسة والثقافة العامة.

هناك أناس لا تدل هيأتهم على مكانتهم أو علمهم أو عبقريتهم، وحينما تراهم ربما تصفهم بالهلافيت إن كنت من أصحاب المظاهر، لكن بمجرد ما أن تحادثهم، حتى تنهار نظرتك وتدرك على جناح السرعة أنك ممن يقال عنهم وفيهم: إنه الأعمى المبصر!

ولعل الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، قد لفت إلى هذا المعنى حينما قال: (رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه)

ولله در القائل:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ** وفي أثوابه أسدٌ هصورُ

وكذلك كان من العظماء الكبار من كان لديه نفس الصورة، فقد وصف العريان أديب العربية الأكبر (مصطفى صادق الرافعي) بقوله: (كان الرافعي كبعض من ترى من الناس، فلم يكن الناظر حينما ينظر إليه ليلمح له امتيازًا في الخلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقريته! بل لقد يشك الناظر إلى وجهه في أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملامح نبوغ أو عبقرية أو فكر سام)

والذكي هنا.. هو الذي لا يعتمد على العين في تقييم الأشخاص والناس من حوله، فإن هناك أسرارًا وغيبًا خلف هذه الصور، تنبئ على حقيقة تغاير ما هم عليه.. ولعلنا أمام ذلك الرومي الذي جاء إلى (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، وتعجب أن يكون هذا هو أمير المؤمنين صاحب الجيوش المنتصرة الغالبة، التي دكت عروش كسرى وقيصر، ماذا به لو لقيه في الطريق ولم يدل عليه فهل كان يصدق أو يدخل في روعه أنه زعيم المسلمين؟

ثم لك أن تتخيل أن يكون أحد البسطاء الفلاحين هو الأساس ويرجع إليه السبب في انتشار المذهب السلفي على يد الرائد العلامة الشيخ (محمد حامد الفقي) حيث يحكي أحد تلامذة الشيخ فيقول: (وسألت الشيخ حامد: يا شيخ كيف صرت موحّدا على منهج السلف وأنت درست بالأزهر؟ فقال الشيخ: درست بالأزهر و درست عقيدة المتكلمين التي يدرسونها

وأخذت الشهادة العالمية و ذهبت إلى بلدي كي يفرحوا بنجاحي، وفي الطريق مررت على فلاح يفلح الأرض، و لما وصلت عنده قال: يا ولدي اجلس على الدكة، وهو يشتغل ووجدت بجانبي على طرف الدكة كتابًا فأخذت الكتاب و نظرت إليه فإذا هو كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية) لابن القيم، فأخذت الكتاب أتسلى به، و لما رآني أخذته و بدأت أقرأ فيه، تأخر عني قدرًا من الوقت الذي آخذ فيه فكرة عن الكتاب، و بعد فترة و هو يعمل في حقله و أنا أقرأ في الكتاب، جاء وقال: السلام عليك يا ولدي، كيف حالك و من أين جئت؟ فأجبته على سؤاله فقال لي: والله إنت شاطر لأنك تدرجت في طلب العلم حتى توصلت إلى هذه المرحلة، ولكن يا ولدي أنا عندي وصية، فقلت له: وما هي؟

قال الفلاح: أنت عندك شهادة تعيشك في كل الدنيا في أوروبا وأمريكا، ولكن ما علمتك الشئ الذي يجب أن تتعلمه أولا

قلت: وما هو؟

قال: ما علمتك التوحيد

قلت: وما هو التوحيد؟

قال: توحيد السلف

قلت: وما هو توحيد السلف؟

قال: إنه يوجد في هذه الكتب كتاب السنة للإمام أحمد، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب خلق أفعال العباد للبخاري، وكتاب اعتقاد أهل السنة للحافظ، وذكر الفلاح كتب التوحيد التي للمتأخرين والمتقدمين، ثم ذكر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقال: أنا أدلك على هذه الكتب إذا وصلت إلى قريتك ورأوك وفرحوا بنجاحك، لا تتأخر ارجع رأسا على القاهرة، أدخل دار الكتب المصرية، ستجد كل هذه الكتب التي ذكرتها كلها فيها، ولكنها مكدّس عليها الغبار وأنا أريدك أن تنفض ما عليها من الغبار وتنشرها.

لم ينس الشيخ (الفقي) هذه الوصية، فعاد إلى القاهرة مسرعا، وعكف على كتب السلف يخرجها من غياهب أدراج المكتبات ويقوم على خدمتها.)

وتسبب هذا الرجل الفلاح البسيط، في توجيه هذا الفتى الذي صار فيما بعد عملاقًا كبيرًا صاحب مدرسة ومنهج وأتباع.

وسبحان الله.. فمع هذا قد يحدث العكس، وتجد رجلا مهيبًا، وعندما يتحدث تسقط هذه الهيبة، وتقول كما قال الشافعي رحمه الله: آن للشافعي أن يمد قدميه.!

احنا دفنينوا سوا!

لماذا الشعب المصري هو الشعب الوحيد في العالم الذي يعتقد ولاية الله وبركاته في (المجانين والمجاذيب)؟ وترى أي مجذوب في أي قرية، يطلق عليه أهلها أنه شيخ وبركة وولي من أولياء الله، ويبنون له ضريحا ويدفنونه فيه، ويتبركون به ويطوفون حوله، وكأنه بيت الله العتيق، حتى وصل عدد الأضرحة في مصر حسب آخر الإحصاءات إلى (٦٠٠٠) ضريح! والله تعالى لا يُعرف إلا بالعقل، ولا يتقرب إليه إلا بالطاعة، وهؤلاء المساكين لا عقول لهم ولا إدراك..

شخص مسلوب الإرادة، لا حساب له عند ربه، ابتلي بأشد بلاء على الإنسان وهو بلاء العقل، ونحسبه في الجنة إن شاء الله، لسقوط التكليف عنه، لكن.. أن نقول: ولي الله وهو الذي لا يعرف ما الله؟ فهذا خطل منا وتجاوز كبير وجرم في الفهم.

حكى لي صديق أثق فيه، أنه كان في قريتهم الريفية بالمنوفية، رجل أبله مجذوب مخبول مجنون ذاهب العقل، ذاهل الأدراك، يتبارك الناس به، ويعتقدون فيه، ويطلقون عليه لقب (الشيخ عبد الرحمن)، وكان هذا الرجل، يسير في الشارع كالتائه، مهلهل الثياب، مقطع السروال، يتبول على نفسه، وأحيانًا يخلع ملابسه لتظهر عورته أمام المارة، وفي أواخر حياته أنهكه المرض وعجز عن الخروج إلى أن مات، ويوم جنازته دفنوه في مقابر بلدة مجاورة، وادعى الأفاكون يومها: أن نعش الرجل قد طار أثناء تشييع الجنازة، وتولى كبر هذه الدعوى بعض

مشايخ الصوفية الضالة، الذين لم يكتفوا بذلك.. فبعد العودة من الجنازة، وقف أحدهم على مشارف القرية، وعلى الملأ قال: لابد أن نبني في هذا المكان مقامًا وضريحًا للشيخ عبد الرحمن، فتحفز أهالي القرية لهذا الدعوى، وتبرعوا من مالهم خاصة بعد أن سمعوا أن نعش الشيخ قد طار.!

يقول صديقي: أنهم جمعوا التبرعات اللازمة في نفس اليوم وانتهوا من بناء الضريح في يوم واحد، وبعد أربعة أيام فوجئ أهالي القرية على طبول وزغاريد وأفراح فخرج الناس يتبينون الخبر، فإذا بأفاكي الصوفية يقولون لهم: إن الشيخ عبد الرحمن طار من قبره وجاء إلى الضريح، وأخذ الناس يتبينون الأمر ويدخلون فيرون فعلا جسد الشيخ عبد الرحمن موجودًا بالداخل! فلم يكن منهم إلا أن أخذوا يطوفون به ويتمسحون بجدران ضريحه، ثم دوى ذكره بين الناس، وانتشر خبره بين العامة، وصار الناس يحتفلون بمولده كل عام، وتسير إليه الركبان، ويقصده القريب والبعيد طلبًا للبركة والرضا.. ويروي صديقي أن أحد المعاصرين للرجل يقسم أنه لم يصل لله ركعة!

ولعل القارئ يظن أن هذا فعلا كان موجودًا في الزمن القديم، حيث كان الناس لاوعي لهم ولا فهم، عقولهم بسيطة وأفهامهم ضئيلة، ولكن قل لي بالله عليك ماذا عن هؤلاء الذين يضج بهم مولد سيدي عبد الرحمن؟! وفي عصر الوعي والتنوير والفهم والفضاء.؟!

إننا بلهاء يا عزيزي.. وإذا لم تصدق فانظر ماذا قال لي صاحبي في تتمة القصة، يقول: حينما كنت ابني بيتي، جئت بأحد البنائين المشهورين في منطقتنا، وكان رجلا كبيرًا في السن، وبينما كنت أتسامر معه قال لي: متى موعد مولد الشيخ عبد الرحمن؟ قلت له كمان يومين.. فقال لي: والله بلدكم دي ناس طيبين أوي، فقلت له: ولم؟ فقال: أنا وفلان وفلان وفلان اللي رحنا نبشنا قبر الشيخ عبد الرحمن من مقابر القرية المجاورة، وجئنا به إلى هذا الضريح، وضعناه فيه في ظلمة الليل، ثم سمعت بعد ذلك، أن الناس يقولون: أنه طار من هناك إلى هنا!

وهكذا العقول اللعينة، تلعب بعقول البسطاء، وتستخف بعقيدتهم وتغرقهم في هذه البدع الآثمة، التي يتسلمونها جيلا بعد جيل وإلى اليوم، وإذا حدثتهم بالحقيقة وكشفت لهم الزيف، نهروك وسبوك ولعنوا آبائك وجدودك، لأنك تشكك في عقيدة الشيخ عبد الرحمن.

ولا شك أن هؤلاء السدنة الخونة أو مافيا الأضرحة كما جاء في وصفهم، لم يفعلوا ذلك عن عقيدة وإنما بغية التكسب من وراء هذا السخف الذي خدعوا به عقول البسطاء، والسطو على أموالهم بغاية التقرب بالأولياء الذين ليتهم من الأولياء.!

وقد نجد ضريحا وهميا، لا يوجد بداخله شيء، وأحيانًا يوجد بداخله رجل عادى، أو طفل، وفى بعض الأحيان يكون حمارًا أو كلبًا، وقد أكدت العديد من الدراسات أن المصريين ينفقون مبالغ طائلة من أجل رضا الولى أو القديس صاحب الضريح، وفى الموالد التى تقام لأصحاب هذه الأضرحة.

إن المؤرخين يجمعون على رأي واحد فيما يتعلق بحال المصريين في زمن المماليك والعثمانيين، وتلتقي أقوالهم لتؤكد سيادة الخرافات والأساطير في تلك الفترتين على عقول العامة. لهذا يقول المؤرخ المصري، جمال بدوي، في كتابه «كان وأخواتها.. مشاهد حيّة من تاريخ مصر الحديث»، إن «العقول الخبيثة استعملت سذاجة الناس وضحالة وعيهم في ذلك الزمنين لاستنزاف ما في جيوبهم».

ولا تنس مصر قصة العنزة المباركة التي ذكرها الجبرتي في تاريخه حيث قال: " «ذات يوم، اشترى بعض الجند المصريين المأسورين في بلاد الفرنجة، عنزة ليذبحوها في مجلس الذكر الذي عقدوه قربانًا إلى الله كي يفك أسرهم، ولكن الحارس القائم على أمرهم رفض ذلك، واستولى على الدابة وذهب بها إلى بيته، فلما راح في النوم جاءته رؤيا مزعجة، فأدرك أن العنزة مباركة. وفي الصباح أعادها إلى الجند، ثم أُطلق سراحهم، ورجعوا إلى مصر مع العنزة. ولّما نزلوا القاهرة، قصدوا مسجد السيدة نفيسة، وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها. وفي الصباح وجدوا العنزة وقد اعتلت المنارة لتكلم الناس». أدرك خادم المسجد، الشيخ عبد اللطيف، الفائدة التي قد يجنيها من ترويج قصة العنزة، فأشاع بين الناس أن السيدة نفيسة

كلمته من مقصورتها وأوصته بالعنزة، وانتشرت الخرافة بين أهل العاصمة، وتوافدوا على المسجد للتقرب منها، والتبرك بها، والتبرع لها بما تجود به طاقاتهم. وهكذا صدق حدس الشيخ، وانهال عليه الرزق من كل جانب، لهذا أقر تسعيرة لكل درجة من درجات القرب من العنزة، أبعدها الرؤية المجردة، وأقربها المسح على جسمها للتبرك.

واستغل الخادم شغف الناس وتعلقهم بالدابة، فأخبرهم بأنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق، ولا تشرب إلا ماء الورد المحلى بالسكر. كما بلغت الخرافة مسامع الأميرات وزوجات الكبار، فبعثن إلى الشيخ ليزين بها جسد العنزة.

عُرف الأمير المملوكي عبد الرحمن كتخدا بكرهه للخرافات والخزعبلات التي سادت عصره، ولما سمع بأمر العنزة المباركة، أرسل طلبًا إلى الشيخ عبد اللطيف، يدعوه إلى زيارة القصر مع العنزة، حتى يتمكن أهل بيته من رؤيتها والتبرك بها. طرب الشيخ بالدعوة، وحدد يومًا للرحلة، فتجمع أرباب الطرق الصوفية في موكب مهيب لمصاحبة الشيخ والعنزة من مسجد السيدة إلى قصر الأمير في الدرب الأحمر.

ولما بلغ الموكب باب القصر، نهض الأمير وضيوفه من الوجهاء لاستقبال العنزة المباركة، واستأذن الأمير أن تمضي العنزة إلى جناح الحريم، فحملها الخدم إلى المطبخ، لتنهال عليها سكين الجزار، وتسابق الطباخون إلى سلقها وتحميرها. وفي الوقت نفسه، جلس الشيخ عبد اللطيف بين ضيوف الأمير يروي لهمًا مزيدًا من كرامات العنزة.

لما حان موعد الغداء، أمر الأمير بمد الموائد، فدخل الخدم يحملون أطباق الفتّة تعلوها هُبر اللحم، وتعاونت الأيدي والأسنان في إنجاز المهمة، وكان الأمير بين الحين والآخر يحث الشيخ على تناول المزيد من اللحم، وسرعان ما يستجيب الأخير، حتى فرغ الجمع من الطعام والشراب، فنهض الشيخ مستأذنًا في الانصراف ومعه العنزة، فقال الأمير: «أي عنزة تقصد؟»، فرد الشيخ: «العنزة المباركة التي دخلت جناح الحريم!»، ليقول «كتخدا»: «العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقًا، ولكنها دخلت بطنك با كاذب.. يا فاجر.. يا أفّاق.. وهذا دليل على ضلالك المبين».

وهكذا، بهت الشيخ الضال، وحاول الإفلات من قبضة الأمير، ولكن الأخير أمسك به، وأمر بضربه ٦٠ عصًا على رجليه.

إنسانية اللصوص!

قد تعجبك هذه الزهرة المتفتحة الجميلة، التي تنشر عبيرها وعطرها الفواح هنا وهناك، ثم يغريك لونها وصفاؤها بنظم الأشعار، ونثر مقاطع الغزل والغرام.. لكنك ما أن تتخطى هذه الهيئة البديعة، وتنظر في أسفلها حتى تراها قامت على حقيقة قاسية، ومشهد مروع من الشوك والسنان الجارحة.!

وهكذا الطبيعة البشرية تغط في تناقض عجيب، تمامًا مثل حال هذه الزهرة الجميلة.. فالتناقض في حياة الإنسان ليس غريبًا، فنفسه التي تأتي بالفضائل لا تلبث أن تأتي بالرذائل في وقت قصير، واليد التي تتقدم بالخير، لها صور أخرى وهي تمتد بالشر.!

وأغرب ما رأيت من النفوس، تلك التي يحملها بعض اللصوص والجبابرة، فهذه النفس التي تؤذي الناس وترهقهم في الحياة، تستطيع في بعض المواقف أن تحنو وتعطف وترق.

إن الطاغية فرعون، رق لموسى عليه السلام وقبل تبنيه وأعفاه من القتل.. بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان في الجاهلية من جبابرة المشركين، نرى عاطفته قد لانت لبعض المهجرين واستاءت نفسه أن يتركوا أوطانهم وديارهم.

يحكي (عبد الله بن عامر بن ربيعة) عن أمه ليلى قالت: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة، أتى عمر وأنا على بعيري وأريد التوجه، فقال: أين يا أم عبد الله؟ فقلت: آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله لا نؤذي في عبادة الله، فقال: صبحكم الله، ثم ذهب فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر، فقال: ترجين أن يسلم؟! فقلت: نعم، فقال: والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب"[١]

[١] – صحيح السيرة النبوية – محمد ناصر الدين الألباني

ويحكى في سيرة الأمير (كروبتكين) الفوضوي الروسي الشهير، قصة أحد الفوضويين حين ألقى قنبلة أمام المركبة الملوكية في (بطرسبرج) فانفجرت، وأجفلت الخيل وجمحت، وبينما هو يريد الفرار، إذا به يرى طفلًا لقيطًا تركته أمه في زاوية من الشارع، فنسي الفوضوي جريمته، ونسي المشنقة التي تنتظره، وثابت إليه نفسه البارة فنظر إلى الطفل، وتذكر خيل المركبة وهي جامحة شاردة، فخشي على الطفل منها وانحنى عليه في تؤدة وحمله وعدًا به.

وحينما وقف العقاد متحمسًا في البرلمان، ضد الملك فؤاد وصاح بكلماته العنيفة:" إن هذا المجلس على استعداد لأن يحطم أكبر رأس في البلاد يعتدي على الدستور" كان مصيره أن حُكم عليه بالسجن تسعة أشهر، بتهمة العيب في الذات الملكية، ولم تمر أيام السجن سدى في حياة الكاتب العملاق، وإنما نتج منها كتابة القيم عالم السدود والحدود الذي وصف فيه حالة أسوأ طبقة في المجتمع، وهي طبقة اللصوص والمجرمين.. وكأنه يحاكي تجربة الأديب الروسي العظيم (دستويفسكي) حينا نفي إلى سجون سيبريا، وكانت روايته الشهيرة: (ذكريات من عالم الأموات) التي قلبت موازين روسيا رأساً على عقب.

كان مما رصده العقاد في كتابه وتعجب له، هو إنسانية أحد اللصوص، وكيف تحول إلى صورة رائعة من العطف والإشفاق؟ وذلك حينما شاهد طفلاً صغيراً من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر، ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث في الجيزة، وكان هذا الطفل مع أقران ستة، ينتظرون الترحيل إلى فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين، فمر به سجين من العائدين في جريمة السرقة، فرفع له الطفل رأسه وناداه في لهجة المسكنة الطبيعية، التي يشعر بها الصغير في غيبة أهله: وقال له: جوعان!

فتمهل اللص العائد وقال له: وماذا أصنع يابني! وانصرف آسفا، فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك في الطفل المستغيث، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق، ومعه رغيف سرقه من مخبز السجن، فقسمه نصفين، وأعطى الطفل نصفه واستبقى لنفسه النصف الآخر، ولو ضبطوه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد.

وكم تتعجب من هذا اللص الذي يخطط مع زملائه اللصوص لسرقة أحد الشقق أو البنوك، ثم ينهي خطته ويستعد ومن معه للانطلاق وهو يقول: على بركة الله.. توكلنا على الله.. وهي قولة حق أريد بها باطل، ولكن هذا التناقض وهذه العملية الإنفصامية، لم يستدعها إلا بقية من الخير قابعة في الأعماق.

"كان أحد اللصوص يمر بضائقة مالية فشرع في سرقة أحد المنازل، وقبل أن يكمل مهمته لاحظ تسرباً للغاز يعم المكان.. وكل سكان المنزل في حالة إغماء.. فماذا فعل اللص؟ هل استغل الظرف وسرق بمزاج كل ما وقعت عليه يده، وهو مطمئن أن لا أحد سوف يهاجمه أو يكتشفه؟ لا.. لقد تحركت في نفسه بواعث الخير.. وطغت على الشر.. فأسرع بفتح النوافذ.. وإغلاق مصدر التسرب، لا بل استغاث بالجيران وهرع لنقل المصابين إلى المستشفى لإنقاذهم.. وبقى معهم حتى إطمأن على إكتمال شفائهم.. وسلم نفسه للشرطة التي أخذت إفادته بكثير من العجب.! هل انتهى الدرس.. لا لم ينتهِ.. لقد أقسم ألا يعود للسرقة... وتكفلت الأسرة بكل احتياجاته.. وصار صديقاً مقرباً.. بعد أن أنقذهم من موت محقق! والدرس يقول.. إن اللصوص بشر.. والقتلة أيضاً.. وكل المجرمين.. لا يمكن أن يكونوا مجردين من الإنسانية والرحمة مهما بلغت بهم القسوة.. والغفلة.. «والران في القلب».. يتكالب على هذه النفس الأمارة بالسوء... والهوى ويقل الوازع الضميري والديني والأخلاقي... وقد تؤثر الظروف والبيئة المحيطة والنشأة.. وتدعم تلك المؤثرات فيجنح «المجرم» وتنزع نفسه نحو الشر والخراب.. والأذى.. ولكن بدون أن تطفأ كل نقاط الضوء الموجودة في داخل الإنسان.. دون أن يصل القلب حد الموات.. دون أن تتوه معالم الخير والرحمة والإنسانية."

وهنا أورد بعض الاخبار المشهورة عن اللصوص الذين تغلبت عليهم إنسانيتهم فكان من أمرهم عجبًا..

- في الولايات المتحدة الأمريكية قام لص بسرقة كاميرا من سيارة، لكنه أعادها بعد أن عرف أن صاحبتها مريضة بالسرطان وهي تقوم بأخذ صور لنفسها بهذه الكاميرا لأطفالها حتى يتذكروها بعد مماتها!

- قام لص في السويد بتحميل محتويات لابتوب ـ كان قد سرقه ـ على فلاش ميموري "USB" وإرساله لصاحب الجهاز، تعود القصة عندما ترك أستاذ جامعي سويدي حقيبته دون رقابة وبداخلها كمبيوتره ليسرق، الأمر الذي أحزن الأستاذ لأن الكمبيوتر يحتوي على أبحاثه ومحاضراته خلال ١٠ سنوات، لكنه فوجئ بأن اللص أرسل إليه فلاش ميموري يحتوي على الأبحاث والمحاضرات!!

- اقتحم لص في ألمانيا بيتا من أجل سرقته، ليجد بداخلة جليسة أطفال أرغمها على السكوت مستخدما سلاحه، لكنه انسحب من البيت فور رؤيته طفلين في البيت يعرضان عليه مصروفهما حتي لا يؤذيهما، الأمر الذي جعله خجولا من نفسة لينسحب من البيت دون ارتكاب السرقة!!

- قام لص في أستراليا بسرقة سيارة مفتوحة النوافذ، وكانت غنيمته عبارة عن هاتف جوال ومحفظة. عندما فتح اللص الهاتف الجوال وجد به صور تحرش بأطفال الأمر الذي أثار غضبه، وهو ما دفعه إلى تسليم نفسه معترفا بسرقة هذا الجوال فقط من أجل القبض على صاحبه الذي تبين أنه في الـ٤٦ من عمره. صاحب الهاتف انتهى به الأمر في السجن بعد التحقيقات!

غير أنهم قبضوا على اللص كذلك يريدون أن يحاكمونه ويعاقبونه على السرقة، فتصدت للقضاة نقابة المحامين بأسرها وبرأته، وخرجت مظاهرة شعبية تهتف باسمه، فما كان من السلطات إلا أن تمنحه وسام الشجاعة والشرف بدلاً من السجن.

- قام لص بسرقة سيارة لكنه سرعان ما أعادها بعد اكتشافه أن هناك طفلا بداخلها، فقد عاد بالسيارة إلى المكان الذي سرقها منه ليجد الوالدين مذعورين فوبخهما على ترك طفلهما دون رقابة! ثم هرب!!

من نعتقدهم اسوأ الناس مؤكد اننا سنجد فيهم خصله من خصال الخير ولو بالقليل!
يبقى الإنسان إنسان بفطرته! له قلب ومشاعر! ومن ماتت مشاعره
قد يكون له أسبابه ولكن لا عذر له!

من يطيق الشهامة؟

قد يبهرنا الحديث عن صفات الشهامة والمروءة والجدعنة والنخوة، ونعد من يتسم بها إنسانًا رائعًا ونموذجًا لا مثيل له في دنيا الرجال، كما تستهوي أسماعنا بين الحين والحين، أن تنصت لهذه القصص التي تحمل صورًا ومواقف لأصحاب المروءة، وأهل الشهامة والفروسية والنبل والتضحية.

وإذا أحببنا أن نمدح أحدًا نحبه، فلا نجد أجمل من أن نسمه بأنه جدع شهم نبيل ذا مروءة.!

لكن صدقني أيها القارئ الحبيب.. في كثير من الأحيان تأتي هذه الشهامة مكلفة مزعجة، تُحمّل الإنسان مالا يطيق من هموم الدنيا ومشكلاتها ومسؤولياتها الضخام! ولا يقدر عليها إلا أناس أبطال أصحاب صبر وجلد وتضحية.

في أحيان كثيرة أندم ندمًا عارمًا على شهامتي ومروءتي مع بعض الناس في بعض المواقف التي جلبت علي شرًا مستطيرًا، وضيقًا لا أتحمله!

وهناك أناس متخصصون في تصدير هذا الشعور لكل من عاملهم بشهامة ومروءة، حتى يجعلوه يضرب نفسه بالحذاء لأنه كان معهم شهمًا كريمًا.!

ورغم هذا كله نقرر: أن هناك أناسًا يعلمون أن مروءتهم ستجلب عليهم الضرر والخطر!

ورغم هذا يخوضون ملاحمها وهم سعداء برجولتهم ونُبلهم، لتبقى المروءة من أجمل وأرقى الصفات التي تجمل صورة الإنسان وتحسن مظهره وجوهره.. وقد شاء الله تعالى أن يسجل هذه الصفة في القرآن وينوه بها في موقف موسى عليه السلام مع ابنتي شعيب عليه السلام قال تعالى:

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤))[1]

لقد دفعته الشهامة أن يخدم المرأتين اللتين تقاصر الرجال عن خدمتهما أنانية واستباقًا دون مراعاة لأنوثتهما وقلة حيلتهما، وعدم قدرتهما على رفع الغطاء للسقي.!

حينما فر الإمام الطبري رحمه الله من البلدة التي كان يقيم فيها، لأنه رفض سب الصحابة، وكان والي المدينة يؤيد السب، ويكره ردود الطبري وما يمليه في هذه المسألة، فأرسل إليه من يطلبه لحبسه، فكان هناك رجل في مجلس الوالي خرج مسرعًا ليخبر الطبري بما بُيت له، ففر من القرية قبل أن تنال منه عساكره، ولما علم السلطان بذلك، أمر بضرب هذا المُبلِغ ألف سوط بسبب إبلاغه، وجاء هذا الرجل بعدما صار شيخًا مسنًا، فأكرمه الطبري واعترف له بالفضل والسبق وكان وفيًا معه.

وكان أبلغ من هذا ما حدث مع الأستاذ (مصطفى أمين) حينما سُجن (٩) سنوات أيام عبد الناصر وكان يُهرب الخطابات من داخل السجن مع أصدقائه المحبوسين الذين وصفهم بقوله: (الرجال الشجعان)

يقول في مذكراته: "بدأت بمعاونة زملائي المسجونين عملية تهريب الرسائل إلى أخي في لندن وعدد من الأصدقاء خارج السجن، وكانت عملية خطرة وشاقة ومستحيلة، وكان من يقومون بها يعرضون حياتهم للخطر، ومستقبلهم للضياع، وكنت أعتمد على المسجونين المظلومين الذين يتحولون إلى شهداء بسبب ظلمهم، والشهيد يجود بآخر قطرة من دمه في سبيل هدف يؤمن به، وقام الرجل الشجعان بهذه المهمة من أجلي، ومن أجل عدد كبير من المسجونين السياسيين، ولم يخافوا قط، وكان من بينهم مصريون وسوريون ولبنانيون وفلسطينيون، وذات يوم ضبط حارس في ليمان طره، أحد المسجونين السوريين واسمه نادر

[1] – سورة القصص: ٢٢-٢٤

جلال، وكان يُخفي في ملابسه خطابًا مني مطلوب تهريبه، وحاول الحارس تفتيشه فخاف المسجون أن يقع خطابي في يد الحارس وإدارة السجن، فأسرع وأكل الخطاب وبذلك لم يعرف الضباط ولا الحراس أن الخطاب مني!

ووضعوه في التأديب أربعة أشهر، والتأديب هو أشبه الجب الذي لا تدخله الشمس ولا الهواء، ويحرم فيه المسجون من كل ضرورات الحياة، وضربوه وعذبوه، ومع ذلك لم يفتح فمه، ولم يعترف أن الخطاب مني.!"

وفي تاريخ الأمويين حينما حاصر العباسيون مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ألح على كاتبه عبد الحميد أن يَهرب، ولم يجد عبد الحميد غير صديقه الوفي عبد الله بن المقفع ليختفي عنده، ولكن عيون العباسيين عرفت مكانه، ففاجأه الطلب وهو في دار المقفع، وهنا تظهر عظمة الرجلين الذين ظلا على الأجيال حتى اليوم فخرًا للشهامة والإيثار والمروءة، قال الجند وهم شاكو السلاح: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما: أنا إشفاقًا على صديقه، وأوشك الجند أن يفتكوا بابن المقفع، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا: ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له تلك العلامات، فلم يجد الجند مناصًا من ذلك، وفعلوا وعادوا بأوصاف عبد الحميد كاملة فقبضوا عليه وقتل عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م.

فأي شهامة قدمها ابن المقفع للتاريخ هذه التي يفدي بها صديقه بحياته. يقولون إن غراباً وسنوراً كانا متآخيين. فبينما هما تحت شجرة على تلك الحالة إذ رأيا نمراً مقبلاً على تلك الشجرة التي كانا تحتها. ولم يعلما به حتى صار قريباً من الشجرة. فطار الغراب إلى أعلى الشجرة وبقي السنور متحيراً. فقال للغراب: يا خليلي هل عندك حيلةٌ في خلاصي كما هو الرجاء فيك. فقال له الغراب: إنما تلتمس الإخوان عند الحاجة إليهم في الحيلة عند نزول المكروه بهم. وما أحسن قول الشاعر:

إن صديق الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك نفسه ليجمعك

وكان قريباً من الشجرة رعاة معهم كلابٌ. فذهب الغراب حتى ضرب بجناحه وجه الأرض ونعق وصاح. ثم تقدم إليهم وضرب بجناحه وجه الكلاب. وارتفع قليلاً وتبعته الكلاب. وصارت في أثره فرفع الراعي رأسه فرأى طائراً يطير قريباً من الأرض ويقع فتبعه. وصار الغراب لا يطير إلا بقدر النجاة والخلاص من الكلاب. ويطمعها في أن تفترسه. ثم ارتفع قليلاً. وتبعه الكلاب حتى انتهى إلى الشجرة التي تحتها النمر. فلما رأت الكلاب النمر وثبت عليه فولى هارباً. وكان يظن أنه يأكل القط فنجا منه ذلك القط بحيلة صاحبه الغراب.[1]

الخوف ليس عيبًا

كثيرًا ما أتأمل هؤلاء السطحيين الذين يتهمون الدعاة أو المصلحين أو المفكرين، حينما يفرون من الظالمين الطغاة، ويهاجرون إلى بلد آخر يأمنون فيه على أرواحهم وأنفسهم ودينهم من الفتن والعذاب، بالخوف والجبن.!

إن السيرة النبوية تخبرنا لنا أن المسلمين فروا إلى الحبشة نجاة بأنفسهم من بطش الكافرين، ثم فروا كذلك من عنتهم إلى المدينة المنورة حتى حفاظا على أرواحهم ودينهم، وحتى يؤسسوا دولتهم الوليدة.. فهل يُعد هؤلاء في نظر القاصرين جبناء أو مجردين من الشجاعة، أو دخلوا الجحور؟! هل حينما يأمن الإنسان على نفسه ويحافظ عليها، ويوفر طاقته لملحمة قادمة، يُعدها له القدر مع عدوه يكون خوافًا جبانًا؟

لقد جاء الخوف جاء في القرآن في نحو (١٢٤) موضعًا، وموسى عليه السلام لم يجد حرجًا أن يصرح عما في نفسه من الخوف لربه سبحانه وتعالى، حينما قال وأخاه: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ) (طه :٤٥)

[1] – مجاني الأدب في حدائق العرب

والله سبحانه وتعالى حينما رد على نبيه موسى لم يستنكر فيه وأخيه صفة الخوف، لأن الله تعالى يعلم أنها شيء طبيعي كائن في نفس الإنسان ومن هنا رد تعالى عليهما بقوله: (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى)[1]

وهذا الكاتب الذي يوجد في مجتمع لا تعجبه كثير من إجراءات حاكميه وأساليبهم وسياساتهم وقراراتهم، ثم يحجم عن نقدها والتنديد بها خشية البطش والتنكيل وحفاظًا على قلمه، أيكون إنسانًا جبانًا أم أنه يؤثر السلامة حتى لا تضيع حياته؟

إن بعض السطحيين رأيته يومًا ينعت العقاد العملاق بالإنسان الجبان.! لأنه فر إلى السودان خشية أن ينتصر الألمان بعد أن هاجم النازية ووضعته في قوائم المطلوبين للعقاب عام (١٩٤٣م) ومكث في السودان بضعة أسابيع قبل أن يعود إلى مصر.

وهناك من يفرق بين الجبن والخوف، وهناك من يجعل الجبن هو الخوف الدائم من كل شيء، أو الهروب من مواجهة أمر هام ومحتم في الحياة، ومنهم من جعله أكبر مراتب الخوف.. وليس معنى مقالنا هذا أننا ندافع عن الخوف الذي يتزيا به الإنسان وهو يشاهد كرامته تهدر وتضيع أمام عينه، أو ينتهك عرضه وهو شاهد عاجز، وإنما نزكي هذا الخوف الذي يحفظ للمرء حياته أمام ظالم أو طاغية، لا يراعي حرمة للدماء والنفس الإنسانية، مادام في الأمر فسحة للانتظار والصبر والعمل والأمل في الفرج القريب.

هناك مواقف كثيرة لا ينفع معها وأمامها الجبن، وربما تخاف كثيرًا أمام مواقف لا ينفع أن تفر منها كالخوف من الموت، فمهما خفت منه فأنت ذائقهُ، وللخوف صور مختلفة، فأحيانًا يكون الخوف ضعف إيمان، وأحيانًا يكون خوفًا على النفس، وهناك خوف على الغير، وهناك خوف على الدعوة، وهناك خوف على المبادئ.. المهم أنه موجود، لكن ليس في كل الحالات نعذره ونزكيه ونلتمس له المبررات، وفي نفس الوقت نقرر بأنه صفة إنسانية أصيلة، وللجاهلين أن يعذروا من يفر بنفسه من مواقف حرجة، لو أنهم وُضعوا فيها لذابوا في أماكنهم وابتلعتهم الأرض من تحتهم.

[1] – سورة طه: ٦٤

لقد أعلن الامام الطبري مخالفته للمعتزلة ورد على القدرية والروافض وتبرأ ممن سب الصحابة، وكتب في فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عندما سمع انتشار سبهما في طبرستان، وكان سلطان البلدة يؤيد هذا السب، ويكره ما كتبه الطبريحتى أرسل في طلبه لحبسه، وكان هناك رجل في المجلس فذهب وأخبر الطبري، فخرج الطبري فارا من البلدة، ولما علم السلطان بذلك ضرب

الشخص الذي بلغه ألف سوط بسبب ذلك، وكان الطبري يعرف بالشجاعة ولا تأخذه في الله لومة لائمولا يبالي ماذا يلاقي في سبيل قول الحق وإظهاره، ومع هذا لا يمنع أن يتحرى المرء النجاة لنفسه!

وهو نفس ما فعله سيعد بن جبير رحمه الله حينما فر من الحجاج بن يوسف الثقفي.!

وكان علما من أعلام السلف، وإماما من كبار أئمة المسلمين، وأحد ورثة عِلْمِ الصحابة عمومًا، وحبرهم ابن عباس خصوصًا، كان كلمة إجماع في عصره، ولم يؤثر عن أحد من أهل العلم، أو رواة الحديث أنه قد جرحه بأدنى كلمة، فهو مجمع على توثيقه بين الناس، هذه طائفة من ثناء الناس عليه:

• كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا أتاه أهل الكوفة يستفتون يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟! يقصد سعيد بن جبير

• وجاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله عن فريضة فقال له: ائت سعيد بن جبير، فإنه أعلم بالحساب مني، وهو يفرض منها ما أفرض.

• قال إبراهيم النخعي: ما خلَّف سعيد بن جبير بعده مثله.

• قال أشعث بن إسحاق: سعيد بن جبير جهبذ العلماء.

• قال أبو قاسم اللالكائي: هو ثقة، إمام حجة على المسلمين.

• قال على المديني: ليس في أصحاب ابن عباس مثل سعيد بن جبير، قيل: ولا طاوس؟ قال: ولا طاوس، ولا أحد.

• قال ميمون بن مهران: لقد مات سعيد بن جبير وما ظهر على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

• قال خصيف: كان أعلمهم بالقرآن مجاهد، وأعلمهم بالحج عطاء، وأعلمهم بالحلال والحرام طاوس، وأعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيب، وأجمعهم لهذه العلوم سعيد بن جبير.

لقد كان سعيد من أنصار ابن الاشعث الذي خرج على الحجاج، فلما ظفر الحجاج فتن الناس في دينهم فاضطر الكثيرون للفرار من العراق، ومنهم سعيد بن جبير، وطلب بن حبيب، ومجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار، وهم وجوه الناس وعلماؤهم، وانتقل سعيد بن جبير إلى أصبهان، وعاش هناك في الخفاء، وكان حريصًا على ألا يعرفه أحد، وذلك سنة ٨٣هـ، ومع ذلك لم يترك الحج والعمرة كل سنة؛ فعلم الحجاج بوجوده بأصبهان؛ فأرسل في طلبه، فهرب منها ودخل العراق مستخفيًا، وأخذ في التنقل من مكان لآخر، والحجاج يشتد في طلبه، وذلك طيلة اثنى عشر سنة كاملة، وفي النهاية استقر في مكة ليسهل عليه الحج والعمرة، واستقر معه باقي إخوانه العلماء، وكان والي مكة خالد القسري يغض الطرف عنهم، حتى قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بعزل عمر بن عبد العزيز عن ولاية المدينة، وعين مكانه عثمان بن حيان الذي أخذ في القبض على أصحاب ابن الأشعث في المدينة، وإرسالهم للحجاج بالعراق ليقتلهم؛ فاضطر عندها خالد القسري لحذو فعله، فقبض على سعيد بن جبير وأصحابه، وقد عُرض على سعيد الهرب من مكة فقال: والله لقد استحيت من الله من كثرة الفرار، ولا مفر من قدر الله.!

فهل مثل هذا العال العظيم ينعت بالجبن والخور أم أنه الحفاظ على النفس والخوف عليها من الفتنة؟!

ونبي الله الكريم موسى حينما فر من فرعون وملئه أليس ذلك حفاظا على نفسه وتأمينا لحياته من بطش فرعون؟

قال تعالى:﴿فَفَرَرتُ مِنكُم لَمَّا خِفتُكُم فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكما وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلمُرسَلِينَ﴾[1]

[1] – الشعراء– ٢١

ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حينما هاجر متخفيًا عن أعين القرشيين، ألم يكن ذلك إلا إقرارًا لهذا المبدأ القويم في حفظ النفس والانتصار للدعوة، حينما نوفر له الأرواح والنفوس لتكون عدتها في جولة قادمة؟!

والمسلمون في مؤتة حينما انسحب بهم خالد رضي الله عنه في جنح الظلام حتى لا تشعر الروم بهم، هل كان جبنا وخوفا أم حفاظا في المقام الأول على جيش المسلمين، وفرارا لجولة أخرى يكون المسلمين فيها أكثر استعدادا لعدوهم؟!

وإمام المسلمين محمد الخضر حسين الذي كافح الاستعمار الفرنسي في تونس، ثم فر إلى الآستانة حينما حكموا عليه بالإعدام، وأنا أصر على كلمة فر لأنني لا أرى عيبًا في هذا.. كما فر من الشام إلى مصر لما أحس بوطأة المستعمرين هناك، أي فر مرتين وعلم الدنيا وسيد الهداية ونص بعدها شيخا للأزهر فلم يعيره النابهون وقتها بأنه جبان فرار.

وانظر إلى هذا البطل من أبطال العرب وأمرائهم وهو صقر قريش الذي مكن لدولة الاسلام في الاندلس وخلف دولة كبرى لم يقدر عليها أعداؤها حتى لقبه عدوه اللدود أبو جعفر المنصور بصقر قريش وقال: الحمد لله الذي جعل البحر حاجزا بيننا وبينه... ولكن هل تعلم أنه لولا الفرار لما قامت هذه الدولة الكبرى ولما قام هذا البطل العربي الكبير؟

بل هناك من جعل الهروب سمة وصفة وطنية وهو الزعيم الكبير خطيب الثورة العرابية الذي كان يتفنن في الهروب ويبدع فيه، فبعد هزيمة التل الكبير كان على عبد الله النديم أن يتوارى عن الأنظار فقفز إلى مركب متجهة إلى الغربية بصفته درويش ومعه خادمه، و رغم قيام شرطة الخديوي توفيق بمداهمة المركب والبحث عنه إلا إنه أفلت منهم.

استخدم نفس الشخصية الخيالية أبي زيد السروجي في مقامات الحريري للتنكر فكان عليه أن يصبغ شعر ذقنه بالصبغة الحمراء ليلًا، وأن يعوج لسانه كي يتنكر بشخصية رجل مغربي تارة أو رجل يمني تارة أخرى ورغم أن عدة مواقف كادت تؤدي بالقبض عليه إلا إنه أفلت منها بأعجوبة.

وعجز الخديوي توفيق والانجليز عن القبض عليه فوضعوا مبلغا كبيرا من المال لمن يدل عليه، إلا إن النديم قال لخادمه الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة أن الحكومة عرضت لمن يقبض عليك مبلغ ٥ آلاف ولمن يقبض على مبلغ ١٠٠٠ جنيه، ولأن الخادم خاف على نفسه لذا استمر الخادم مثل النديم يبتكر حيل في التنكر والتخفي ويقوم باعوجاج لسانه كأنه غريب وبعد فتره سمح له النديم بأن يذهب لأسرته ويتخفى عن الأنظار.

وهكذا كان الفرار في حياة الأخيار.. ترى لو كانوا جبناء فهل كانوا يقفون ابتداء مواقفهم الكبيرة التي انتصروا فيها للحق وأيدوا بها ما يرونه صحيحا؟

لو كانوا جبناء لسكتوا مبكرين ولم يتفوهوا بشيء.

متفوقون يسقطون

يجب أن نعلم حسب ما يخبرنا الواقع وتنبئنا تجارب الحياة، أن العملية الدراسية ليست هي الحكم النهائي على مصير الإنسان ومستقبله، فكم كان هناك طلاب متفوقون ثم خابوا وخائبون تفوقوا.. ولو أن كل إنسان قام بعملية استرجاع في ذكرياته للماضي، لتذكر طلابًا كانوا يصاحبونه في بعض مراحله الدراسية، كانوا قمة في الشطارة والاجتهاد والتفوق، ثم خابوا ورسبوا وتقهقروا للوراء! ليجدن في ذاكرته ذلك المجتهد الذي تبلد والبليد الذي اجتهد وتفوق، بل ليجدن العديد منهم قد اختلفت نهاياته عما كان يظن ويتوقع له أن يكون.!

بعض الكتاب يتندر بهذه الوقائع، ويذكر هذه المفارقات، فيقول: "كثير من الزملاء أصبحوا محامين ومهندسين وأطباء وأساتذة في الجامعة ومستشارين، ولكن العجب أنني لم أجد أحدًا من النوابغ الذين كنا نُغبطهم على تفوقهم الدائم في الامتحانات، وعلى إجاباتهم على كل سؤال للمدرسين، وعلى حفظهم الدروس ظهرًا عن قلب، لم أجد واحدًا منهم في الصف الأول من الحياة!

وأغلب الظن أن امتحانات الحياة أصعب من امتحانات الدراسة، وأننا نحتاج في الحياة إلى ذكاء وفكر وابتكار، أكثر مما نحتاج إلى حفظ قواعد اللغة الإنكليزية، وتصريف الأفعال باللغة الفرنسية، وأنه لا يكفي أن تعرف نظريات الهندسة عن ظهر قلب، لنعرف نظريات الحياة الأكثر صعوبة والأكثر تعقيدًا!

وأذكر أنني منذ سنوات كنت أزور أحد الوزراء في مكتبه، واستقبلني ساعي عجوز يرتدي بذلة صفراء رثة، وصافحني بحرارة وصافحته، ثم سألني: هل تتذكرني؟ قلت أتذكر وجهك! قال: أنا فلان كنت تلميذا معك في مدرسة رقي المعارف الثانوية بشبرا!

وتذكرته وتذكرت اسمه وتذكرت أنه أول الفصل في الهندسة والجبر والحساب! وتذكرت أنه كان يحل المسائل الهندسية التي كنا جميعًا نعجز عن حلها!

وصعقت لأنه كان يعمل فراشا!"

ولعل التفسير المناسب لهذه القضية، أن أغلب الطلاب والتلاميذ يستخدمون في بداية حياتهم مَلَكة الحفظ، فهو يحفظ كل شيء، خاصة وأن السنوات الأولى من التعليم تعتمد على التلقين في بادئ الامر، فإذا انتقل للمراحل الأعلى، وجد موادًا تتطلب الفهم والوعي، وهنا تحدث الانتكاسة ويتوقف تفوقه.

وكما يتعجب الإنسان من هؤلاء المتفوقين الذين ينحدرون من أعلى إلى أسفل.. تبقى الحيرة الأكبر، والعجب العجاب، في أولئك الراسبين الذين تفتقت أذهانهم وصاروا شيئًا عملاقًا، وانحرف مسار حياتهم من القاع إلى القمة، وصاروا في الحياة شيئا مهمًا ونافعًا وذا قيمة، ومنهم من صار صاحب منصب أو نفوذ أو درجة علمية راقية.. وينستن تشرشل كان طالبًا بليدًا ثم أصبح أهم رئيس وزراء فى تاريخ بريطانيا، ونال جائزة نوبل فى الأدب، وتوماس أديسون (مخترع أمريكي له أكثر من ١٠٠٠اختراع) طرد من المدرسة بحجة أنه "غير قابل للتعلم" وأينشتاين (صاحب النظرية النسبية) كان فاشلا لدرجة رسوبه في امتحانات المعهد العالي في زيورخ، ومايكل فارادي (مهندس بريطاني اخترع الدينمو) كان بليدًا لدرجة عدم النطق خلال سنواته الدراسية كلها، وكان تشارلز داروين يهرب من المدرسة ليتسلق

الأشجار ويراقب قوافل النمل.. أما لويس باستير (مكتشف الجراثيم وطريقة البسترة) فكان كثير السرحان لدرجة صنف كمريض بالذهان.

لست أبو العريف!

حقًا شيء مستفز، حينما ترى الجهلاء والأغبياء يصرون على بعض الظنون والأوهام في الحياة، لتنطلق وتسري في المجتمع كله وتصير بعد ذلك مفهومًا عامًا يصعب التخلص منه أو مخالفته والاعتراض عليه والحديث عن خطئه.!

هذا تمامًا ما حدث ويحدث حول مهنة الطب والأطباء، التي يرى المجتمع أنها أعظم المهن وأسمى الوظائف، وينعتون صاحبها وممارسها بالطبيب أو الحكيم، أي أنه أوتي الحكمة ورزق البصيرة.!

وأنا هنا لا أعترض على احترام المجتمع لمهنة الطب والأطباء ولا أقلل من شأنها ولا وشأن من يمتهنها ويقوم بها، فأنا من المقدرين لقيمتها ونبل غايتها، وإنما فقط أعلق على أمر أثار حفيظتي واستفز أفكاري، وهو ذلك الخطأ الذي يجري على أذهان الناس وظنونهم نحو مهنة الطب والطبيب الذي يجعلون منه شيئًا خارجًا عن نطاق البشر وحيز المعقول، ويسربلونه بثياب العصمة، ويجعلون منه شبيها بالأنبياء والأولياء وأصحاب الكرامات، والعارفين الذين يرون مالا يرى للناظرين، ويدركون من أسرار الدنيا ما لم يدركه أحد من العالمين.!

إنهم يرون الطبيب ليس ككل الناس، وأن هذه المهنة قد أخرجته من نطاقه البشري، فما عاد يجري عليه ما يجري على البشر في صفاتهم وطباعهم وخصالهم الفطرية الموجودة والمتأصلة في كل النفوس.! إنهم تحديدًا وتقريبًا، يحاولون أن يجعلوا منه صورة لجنس أعلى درجة وأرفع رتبة من جنس البشر! رغم أنه منهم في تكوينه وهيئته.!

وقد يكون لهم الحق والعذر في هذا الإكبار والتقدير المبالغ فيه، نظرا لسمو مهنة الأطباء وطبيعة عملهم في شفاء الإنسان، وتخفيف آلامه ومحو أسقامه، لكن.. مهما كانت قيمة

العمل، لا يسوقنا الشطط فيه أن نخرج أصحابه من طبيعتهم البشرية، فنلبسهم ثوب العصمة والنزاهة عن الخطأ، والزلل والادعاء بأنهم يفهمون ويعرفون كل شيء، لأنهم في المقام الأول بشر كعامة البشر، يخطئون ويصيبون، وينجحون ويرسبون، يفوزون ويخسرون، يعتلون ويسقطون، يذنبون ويتوبون، يعلمون ويجهلون، يفهمون ويتغابون! هم ناس كالناس، لهم نوازعهم وميلوهم وهناتهم وزلاتهم وشواردهم وعيوبهم وحسناتهم وسيئاتهم.. فلماذا تَسُود هذه المفاهيم المبالغ في تصورها وحقيقتها لتخرج صنفًا من الناس إلى عالم آخر، يكاد يفوق عالم النبوة في قدسيته وعصمته وطهارته وعلمه وبصيرته.؟!

ولعل السوقة والدهماء والعامة سامحهم الله، كان لهم النصيب الأكبر في ظهور هذه التجاوزات العقلية والتصورات الذهنية، وشيوع هذا الفهم الخاطيء والرؤية المعوجة، فإذا كلمت أحدهم عن طبيب بشيء سلبي، رفض حديثك ولا يقبله وتسمع منه أكبر كلمة تستفزك وهي:

يا أخي لأ دا دكتور برده.!

كلامك خطأ لأنه دكتور.!

مينفعش كلامك دا برده دكتور.!

فالدكتور عندهم أبو العريف في كل شيء وكل علم، وهو مثقف وعالم وقدوة ومعصوم وخالي من العيوب، ومنزه عن الخطأ، ومبرأ من النقص، وفاهم لكل شيء، وعالم بكل خافية، ومثال للأخلاق، ومالك لكل محمدة ومنقبة بشرية، وغير قابل للإساءة والتشويه، وغير متصور أن يصدر منه خطأ من تلك الأخطاء المعهود صدورها من البشر، وذلك لأنه طبيب أو كما يقولون دكتور.!

وإذا ما حاولت أن تصحح هذا المفهوم، وترد على هذا الخطأ، وشرحت للموهومين فساد فهمهم، وأن كل إنسان يمكن أن يُخطيء ويغلط، لا يقتنعون بحديثك وربما اعتبروه فلسفة فارغة.! فإذا تحدث الطبيب في السياسة أوالادارة أو أي علم غير علم الطب، فإنهم

يصفقون وراءه ويسلمون برأيه، لا لأنه صحيح ولكن لأن قائله طبيب، فإذا خالفته وكان لك رأي آخر، استنكروا قولك بقولهم: دا راجل دكتور.!

ولعل هذا الفهم نابع من مهنة الطبيب، التي ينظرون إليها نظرتهم إلى المعجزة والسحر، فالشخص يمرض، وبمجرد أن يأتيه الطبيب، ويحدد له علته وتناول الدواء يقوم متعافيا مشفيا، فهذا تماما كمن أتى بالسحر أو المعجزة المبهرة، أو أن الله تعالى هو الشافي المعافي، وقد جعل هؤلاء الأطباء رسله في بُرء الإنسان وشفائه من داءاته، كما أنهم يرون المريض وقد خَفِيَ عليه ما به من علة وداء، فيأتي الطبيب الذي يعلم علة المريض، وسط هذا العالم الخفي المجهول وهو جسم الإنسان، ليتمثل لهم ساعتها كمن يعلم الغيب أويكشف ما وراء الحجب..!

أسباب كثيرة غلبت على أفهامهم البسيطة، لتخرج هذه الرؤية المجتمعية التجاوزية المغالية السطحية، والانطباع العام عن الطبيب في عمله ووظيفته التي تقارب الأساطير.!

ربما يظن أحد القراء من ثنايا الحديث.. أنني كنت يومًا أتمنى أن أكون طبيبًا، أو أدخل كلية الطب لينادوني الناس بلقب دكتور.. ومن ثم فأنا حاقد عليهم، أو معقد من مهنتهم التي حرمت منها كأمنية منشودة، وأحاول هنا أن أحسدهم على حب الناس لهم، والتقليل من قيمتهم والنيل من مقامهم الكبير، فإنك إن ظننت هذا فقد أخطأت، لأنني حقيقة أعتز بقلمي كثيرا وأوقن أن مهنة الكاتبة مهنة سامية، واقتناء القلم أثمن الوظائف! فأنا كاتب أملك القلم، الذي يوجه الأمم، ويُبصر الشعوب لعزها ورفعتها وتقدمها ووعيها بدورها وريادتها وسبيل نهضتها، وإذا كان الطبيب يحي الجسد وينفي المرض، فأقلام الكتاب تُحيي الأمم، وتشفي العقول، وتُبريء الأفهام، وتنفي ظلام الجهل.!

كما أن هذا القلم عاهدت الله فيه من قديم، أن لا تسيره الأهواء وأغراض النفس الدنية، وإنما هو ملك للحق ومداده وقف على الصدق، ولكن الذي دعاني لأكتب عن هذا اللبس العقلي والخطأ المجتمعي، هو أنني أعرف طبيبًا، كان قمة في الحقارة والدناءة والسفالة وحب النفس والجشع والطمع والأصل الواطي الوضيع، والحقد والغل والانفراد بحشد هائل من

العقد النفسية الطافحة، التي ضجت بها نفسه وغرسها في أبنائه وزوجه.! وكان كلما جاء الحديث عنه وبينت للناس بعض ما به من سوء، أجد من يكذبني ويعترض علي كلامي بقوله: كلامك غلط.. دا دكتور يا أخي! فيغلي دمي وأصرخ بعلو صوتي: يا عالم يا هوه.. إنه كذا وكذا، فيؤكدون رفضهم مرة أخرى وبنفس منطقهم الأعور: يا أخي لا ميصحش كلامك إنه دكتور.!

وفي غمرة هذه الجهالة وهذا الحمق الكبير وفي ظل الخشية أن يصيبني ضرب من الجنون، لم أشعر إلا وأناملي تكتب هذه الخاطرة، وتعرّض هذا الظن الخاطئ، وتسجل رفضها العنيف لهذا الفهم السخيف والسطحية البلهاء عن الطب والأطباء.!

ولكل طبيب شريف يؤمن أنه إنسان عادي وطبيعي ولا يعلم كل شيء، أقدم تقديري واحترامي بعيدًا عن الغلو والشطط، الذي جعل الناس يكلفونهم فوق طاقتهم، ويلبسونهم مالا قدرة لهم به من صفات الإعجاز المذهلة، التي تجعل من أحدهم قوة خارقة في دنيا الناس.!

شكرًا سيدي الإمام

أدرك بيقين أن ما فعله الخميني من فتواه بإهدار دم الكاتب الأحمق السفيه سلمان رشدي كرد فعل على كتابه آيات شيطانية كان أكبر عملية تسويق وترويج للكتاب وأنه لو لم يخرج الخوميني بتلك الفتوى لوئد الكتاب مع أول طبعاته واعتبر هرطقة وكلام فتى أرعن لم يكتمل نضجه.

لكن ما حدث ألهب مزاج العالم كله والذي شب متطلعا ليقتني ويقرأ كتاب آيات شيطانية حتى صار الكتاب الأشهر في العالم والأكثر مبيعًا في فترة الثمانينات.

حتى اندفع سلمان رشدي نفسه ورأى أنه من الواجب أن يقدم شكرا للخوميني كاعتراف بالجميل لما قدمه له من خدمة منقطعة النظير فكتب له يقول:

(شكرا سيدي الإمام الجليل آية الله الخميني فقد أوصلتني إلى مكانة وشهرة لم أكن احلم بهما في يوم من الأيام، لك الفضل الأول والأخير بهما، وأنا مدين لك طوال عمري).

المحب لك دائما وأبدا

سلمان رشدي

كثيرون أدركوا هذا الغرض وهذا المعنى، فإذا أردت الشهرة في الدنيا وأن يعرفك الناس فلتخلق فرصة يهاجموك فيها، ويشتموك ويلعنوك، ساعتها تنال مأربك وتبلغ غايتك ويشتهر فكرك وعملك ويزيع صيتك، وهو ما أدركه الأستاذ (خالد محمد خالد) حينما ألف أول كتبه من هنا نبدأ ولم يلتفت إليه أحد وأهمل في المطبعة وكاد أن يأكله التلف، لو لم يتيقظ خالد ويلجأ لحيلة الهجوم عليه، فسلط أحد أصدقائه أن يكتب مقالة يهاجمه فيها ويذكر كتابه بالسوء، ويقوم بسببه، وأعطاه بعض الجمل من الكتاب ليضمنها مقاله، فاهتم صاحب الرسالة بذلك ونشر المقال، وفي العدد التالي كان كل الكتاب يكتبون عن كتاب خالد ويهاجمونه وينعتونه وصاحبه بالسوء والزيف والافك، وأقبل الناس على الكتاب فنفدت طبعاته وطبع بعدها عدة مرات حتى صار الكتاب الأول في مصر الذي أحدث ضجة ثقافية هائلة لا نظير لها، خاصة حينما تنبه له العلمانيون والشيوعيون فاحتفوا به وأظهروا صاحبة خاصة وأن كاتبه شيخ أزهري.

لقد نال خالد مأربة من فكرة الهجوم التي جنى منها الشهرة والمجد وصار يشار إليه بالبنان.!

رحم الله الشيخ الشعراوي كان يدرك ذلك جليا فقد هاجمه الكثيرون وانتقدوا فيه مالم يكن يعجبهم، انتقده أنيس منصور ويوسف إدريس، لكن الشيخ أبدا لم يكن يلتفت إلى هؤلاء كان يعلم أنه إن رد عليهم سيفقد هيبته ويزيد من مكانتهم التي تتضاءل بأميال أمام مكانته الدينية الكبرى، وظل الشعراوي شامخا عاليا سامقًا لأنه عف أن يرد على هذه الهرطقات.

ومن العجائب أن الدتور غازي القصيبي كانت تمنع له بعض كتبه وهو وزير فلما سئل عن ذلك قال: هذا المنع خير! فما منع لي كتاب إلا طبعته مرارا لاشتداد الطلب عليه بمجرد ما يعرف الناس أنه ممنوع.!

يحكي مولانا الشيخ علي الطنطاوي حكاية تستحق التأمل في عالم الدعاية المجانية بل تستحق الدراسة وأخذ العبرة منها والإفادة.

يقول الشيخ:" حين كنت إماماً في جامع كبير بدمشق، وكنت مثلك شاباً لا أدرك أبعاد الأمور، كان قد أُعلن أن (منيرة المهدية) المطربة سوف تزور الشام وتحيي حفلة غنائية، وكانت تلك المطربة سيدة الغناء في ذلك الوقت، قبل أن تشتهر أم كلثوم، وكانت كلمات أغانيها فيها خلاعة، وحركاتها وهي تغني كلها دلع ومياعة، فاعتلوتُ المنبر في خطبة الجمعة، وصحت بالناس محذراً: انتبهوا..! ... اسمعوا وعوا.. غداً أو بعد غد ستأتي هذه المطربة الخالعة المائعة المسماة (منيرة المهدية) وتملأ فضاء الشام بكلمات أغانيها التي تخدش الحياء، وسوف تتمايل بقدها الممشوق وتهز جسدها وتبرز مفاتنها، فالحذر الحذر من حضور حفلتها أو السماح لشبابنا بشراء تذاكرها.! فإنها مفسدة للدين والأخلاق!

وواصلت الهجوم عليها والمطالبة بمنعها وليتني لم أفعل !.. إذ لم يكد الشباب يخرجون من الجامع حتى تسابقوا لشراء تذاكر حفلتها حتى نفدت التذاكر في يوم، وبيعت في السوق السوداء بعشرة أضعاف ثمنها!

كنت أعمل لها (دعاية هائلة مجانية) من دون أن أدري! كنت أظن أنني سأصرف الناس عنها فصرفتهم إليها ! فكل ممنوع متبوع.. وكل من تتم مهاجمته تتضاعف شهرته .!

الغربة بين الماضي والحاضر!

لا شك أن الغربة مُرة والفراق فيها مؤلم، ولعل هذا الألم يدفعني كثيرًا للبحث عن أبيات الشعر والحكم التي نظمها المغتربون والمنفيون والأدباء والشعراء، لأرددها حتى تكون

سلوة تخفف عني ما ألم بي من اغتراب.. أفكر كثيرا في أهلي وبيتي وأسرتي وأتمنى العيش معهم وفي كنفهم.. أشعر بين الحين والحين بألم الفراق ووخز البعاد، وأمام هذه الأشواق والعذابات أتأمل فأقول: ماذا لو كانت الغربة اليوم على ما كانت عليه في الماضي من الحرمان المدقع والانقطاع التام والغياب الطويل والأيام المترامية؟! ماذا لو كنت في بلد من البلدان لم تر أهلك أو تكلمهم بالشهور والسنين، تغيب عنك أخبارهم، وتجهل أنباءهم، ولا تعلم شيئًا من أحوالهم.

بعض المغتربين يندب حظه ليل نهار، لحرمانه من وطنه وأهله وولده وإخوته، ولو أننا أمعنا بعض النظر في طبيعة الغربة في العصر الحديث، لعلمنا أن الله تعالى خفف علينا كثيرًا من معانيها وصورها المؤلمة.

فمع العصر الحديث ومتغيراته، فقدت الغربة كثيرًا من سماتها المجحفة التي كانت تكوي بها أصحابها، والمغتربون اليوم صاروا فيها شبه مغتربين، أو أنها صارت غربة من نوع جديد، ليست كتلك التي عرفها الناس وتلظى بألمها الشعراء والأدباء، فمع ظهور الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، قربت المسافات، وتواصل البعداء، وطويت الأزمنة، وصار المرء منا بعيدًا لكنه في نفس الوقت قريب وحاضر وموجود، يعيش بين أسرته وإخوته يومًا بيوم، ولحظة بلحظة، في كل كبيرة وصغيرة، لقد استشعرت هذه النعمة العظيمة حينما شاهدت زميلا لي يشرح لولده درسًا في اللغة الانجليزية على الماسينجر صوتًا وصورة.!

كذلك عقوبة النفي والإبعاد، وهي أقسى أنواع الغربة، وكانت من أقسى عقوبات القوانين، لكنها اليوم ومع ثورة المعلومات والاتصالات، صارت عقوبة غير مجدية، لا تحقق غرضها في قطع المنفي عن بلده ووطنه وأنصاره، وقبل ظهور الانترنت ومع بصيص من هذا التواصل، استطاع الخميني في منفاه أن يقود الثورة في بلاده ويؤجج لهيبها، ويزيح الشاه من الحكم، ويسقط عرش الطاووس بواسطة شرائط الكاسيت، فيما سميت بعد بثورة الكاسيت، فكيف به لو أدركه الانترنت، ووجهه في عمله الثوري والإرشادي، لا شك لكانت أسرع وأنجز في قيامها.!

لقد كان النفي فيما مضى عقوبة بمعنى الكلمة، تحرق الإنسان وتقتله وتهزم نفسه وتشعل فؤاده وتُصلي مهجته، تشعر بهذا أكثر ما تشعر به في أشعار البارودي (رب السيف والقلم) في منفاه وغربته في جزيرة سرنديب (سيرلانكا) أكثر من (١٧) عاماً يعاني الوحدة والمرض والغربة والحرمان، حيث ذكر الليل والظلام وطول الأيام فقال:

أبيت أرعى نجوم الليل في ظلم ** يخشى الضلالة فيها كل مدّلج

ليل غياهبه حيرى وأنجمه **حسرى وساعاته في الطول كالحِجَج

كأنما الصبح خاف الليل حين رأى ** ظلماءه ذات أسداد فلم يلج

ثم يُظهر لوعته وحنينه إلى الأهل والأصحاب والوطن فيقول:

طورا أداري لوعتي بالمنى ** وتارة يغلبني مدمعي

فهل إلى الأشواق من غاية ** أم هل إلى الأوطان من مرجع

لا تأس ياقلب على ما مضى ** لابد للمحنة من مقطع

ثم تأتيه الأنباء الفاجعة وهو في المنفى، فيسمع بوفاة ولده وتتبعه ابنته فيقول يرثي حاله:

فزعت إلى الدموع فلم تجبني ** وفقد الدمع عند الحزن داء

وما قصّرت في جزع ولكن ** إذا غلب الأسى ذهب البكاء

ثم تتوالى عليه أنباء الموت بعد أهله في أصدقائه الشدياق وفكري والمرصفي فيقول:

أخلق الشيب جدتي وكساني ** خلعة منه رثة الجلباب

كلما رمت نهضة أقعدتني ** ونية لا تقلها أعصابي

فجعتني بوالدي وأهلي ** ثم انحنت تكر في أترابي.

وإذا كنت أيها القاريء ممن يستثقلون الشعر ولا يهوونه ،فلازما عليَّ أن أحكي لك ما تشعر منه بآلام المغتربين والمنفيين قبل التطور المعاصر ففي كتاب (الولد الشقي في المنفى) تحدث الاستاذ (محمود السعدني) عن مأساة عبدالله ذلك الشاب التونسي الثائر، الذي فر من النظام القائم وصار مطلوبًا لحبل المشنقة لقد هرب منها تحت جنح الظلام وساح في بلاد الله هائمًا مشردًا بائسًا معدمًا منذ عام ١٩٥٧م ،لا يعرف شيئا عن أسرته الصغيرة التي تركها، وكان

يبكي بكاء مرًا كلما علم بوفاة أحد من أقربائه أو أصدقائه بعد سنوات من ذلك الموت، وكانت قصته مع ولده غاية في الألم، فقد فر من تونس وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وولده رضيع صغير لم تقع عليه عينه بعد ذلك،ومع مرور السنوات تطوع أحد الكرام الطيبين عام ١٩٦٢م وأرسل له صورة ولده، ولم يكن قد جاوز الخامسة من عمره، وأصبحت هذه الصورة هي الصلة التي تربطه بابنه وبعائلته في تونس كلها، وكان ينظر إليها كلما أحس بالحنين أو استبدت به الغربة، حتى بهتت الصورة وضاعت معالمها، على مدى ستة عشر عامًا ظل عبدالله يتنقل من هنا إلى هناك إلى أن هيأت له الأقدار بعد ذلك أن يعثر على ولده بعد ١٥ عامًا من الحرمان والغربة والبعد الأليم العصيب.

الرحالة المسلم (عبد الرشيد إبراهيم) شاءت له الأقدار حينما عزم على رحلته الدعوية الاستكشافية للشرق الآسيوي قبل ١٠٠ عام، أن يسجل مشاعر الاغتراب القاسية حيث قال: "أخفيت في قلبي خطة لرحلة طويلة، وكنت أقضي معظم وقتي في التفكير بأهلي الذين سأتركهم لرعاية الله الرزاق ذي القوة المتين في ديار الغربة هذه، أفكر في حالي حيث اخترت الرحيل لداير غربة أخرى بعيدة، سيكون سفري طويلا ولم يكن في خاطري من أحد سواي يعرف هذه الرحلة الطويلة التي استولت على قلبي، أما أهلي فيظنون أن نهاية رحلتي ستكون في أوفا، أو أومسكي على أبعد تقدير، وصرت أغالب ألم الفراق أما صغاري، الذين ينظرون إلى عيني بعيون دامعة حزينة، وفي لحظة مؤثرة، وقف ولدي أحمد منير بقلب حزين، وكأنه أحس ببعض ما أخفيه، وأراد أن يعطيني النقود التي كانت بيده قائلا بصوت متحشرج: (أبي ..) وكادت الدموع تنفر من عينيه، فقلت له: يا ولدي اهتم بأختيك الصغيرتين، ثم فقدت القدرة على النطق بكلمة أخرى، أما الصغيرتان فقد رأيتهما تبكيان، ولم أعهد فيهما البكاء قبل اليوم، وأخيرًا قررت التحرك في اليوم الرابع من شهر رمضان المبارك أعددت ملابس السفر، وبعض الحاجيات الأخرى، وذهبت ابنتي قدرية لتأتي بالحوذي فنقلوا أمتعتي إلى العربة، كنت أخر من الباب وكأنني الميت الحي والصغيرتان تعانقاني باكيتين..

لقد هاجر عبد الرشيد من بلدته تارا إلى قازان وترك عائلته بها ورحل وحده منها إلى مدينة أوفا.. لقد كان يقول:

كنت أفكر لماذا وإلى أين أنا ذاهب ولم يكن معروفا لدي هل سأعود مرة أخرى أم لا.. أوصلتني العربة إلى الميناء، كانت السفينة جاهزة فتحركت بي إلى أوفا..

كنت أحس بأن صافرات الوداع التي انطلقت من السفينة تكاد تمزق أحشائي، وكأن السفينة وهي تبتعد عن قازان أحست هي بألم الفراق، فتعبر عن هذا الألم بالصراخ والعويل.. فهي تريد بصافراتها المتواصلة، أن يحس الناس بأنه الفراق الأبدي، وكنت أشاهد الركاب يلوحون بمناديلهم لأصحابهم الذين بقوا على الرصيف، وبعض السيدات يمسحن دموعهن، مما جعلني أستغرق في أفكار شتى، كنت أنظر إلى مساجد قازان ومآذنها التي تتراءى لي من بعيد فأودعها بقلبي الحزين.."

حماقة الحرفيين

ليس معنى أنك عدوي أن أتنكر لك ولا أقبل وجودك ولا أطيق رؤيتك، أو ذكر اسمك، هناك قوم متوغلون عميقون في خصومتهم، أو إن شئت فقل: فاجرون في عدائهم، فلو مررت أنت وحييت عدوي أو ابتسمت في وجهه، فأنت أيضا عدوي ولا يمكن قبول هذه الابتسامة! إلا أن تكون تأشيرة الدخول والانضمام لصفوف الأعداء، فهم لا يقبلون أبدًا أي مهادنة أو أي مسامحة أو أي شكل من أشكال الهدوء والملاينة، فالعدو هو العدو، ولا شيء آخر غير العدو.!

ولعل هذا التصور الأخرق المأفون الضيق الجاهل.. سريع الاتهام والظلم والتخوين، وسريع في الأخذ بالشبهة، وأصحاب هذا الطريق لا يقبلون ما يسمى بالحوار، ومحاولات التقارب واللين والتفاهم.. بل إن مجرد الإقدام على شيء من هذه الصور والمفاهيم، يعدونه خيانة وعمالة وذنبًا لا يغتفر.!

ولعل في هذه الصور مسحة من خصام الأطفال، أو خصام الأنداد مع بعضهم البعض، لكن خصومة الفكر والعقائد، والعلاقة بين القوي والضعيف، والكبير والصغير، لا يمكن أبدًا أن تكون بهذا الشكل الطفولي، فهناك حوار وأخذ ورد واستماع وتفهم، ولقاء وعرض، وقبول وتأن، وشرح وتعريف وتأمل وصبر ومحايلة، حتى ينال المرء مأربه في هدوء، ويحصِّل أكبر قدر من المكاسب من عدوه، أو على الأقل يأمن جانبه أو يتعرف على مقاصده وطبائعه وأسلوبه فيتلافى كيده ويحصن نفسه من تدبيره.

لقد عاد الإمام (محمد عبده) إلى مصر بعد أن ترك الجهاد السياسي مع أستاذه (جمال الدين الأفغاني) وحمل نفسه على الالتزام بالثقافة والتربية، وهو ما كان أميل لقلبه من العمل بالسياسة.

ومما جاء عنه.. أنه وضع في خطط إصلاحه وأهدافه أن يتعاون مع الإنجليز، ويصادقهم ويتفاهم معهم لينال منهم بأقصى ما يستطيع إعانته، فيما ينشد من إصلاح داخلي تثقيفي، وهو المنهج الذي لم يكن يُعجب مصطفى كامل وكان بسببه في خصومة شديدة مع الإمام.

بل هي الشبهة التي ذكرها يومًا شاب سلفي، جرى بيني وبينه عراك فكري حول شخصية الإمام، ولوح بهذه الصداقة بينه وبين كرومر والتي يراها مريبة، وكأنها سبة عظيمة وخيانة فاجرة، وما هي إلا حكمة وحصافة من أجل الأمة وإنفاذ مصالحها.. ولكن هكذا ينظرون وهكذا يؤولون.. نعم لقد أفاد (محمد عبده) كثيرًا من الإنجليز ولكنهم هم ظنوا أنهم أفادوا منه، لكن كل ما أفاده كان في سبيل بلاده ووطنه.!

يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابة القويم (زعماء الإصلاح): "كان محمد عبدة يرى أن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون، يمكن التفاهم معهم، وأخذ أشياء من أيديهم تدريجًا لمصلحة الأمة، حتى إذا نضجت الأمة، أمكنها الحصول على حقوقها كاملة، حيث لا تستطيع أن تنال منها مع الجهل والغفلة"

رحم الله الكاتب الكبير (محمد جلال كشك) حينما صور علماء الأزهر أيام الحملة الفرنسية الذين انضموا لديوان نابليون، لا شك أن السطحيين يرونهم ممالئين أو خونة أو عملاء، أو

أصحاب دنيا باعوا وطنهم وقضيتهم، وساعدوا المحتل في نيل مآربه، ولكن الحقيقة التي ذكرها الكاتب، أنهم كانوا يقومون بدور المقاومة السلبية في هذا الديوان، ليعرقلوا ماشاؤوا أن يعرقلوا من غايات الطاغية نابليون.!

وما كان هؤلاء العلماء ومن بعدهم الإمام محمد عبده، إلا منطقيين مع أنفسهم وهم يتعاملون مع الاحتلال كأمر واقع، يكيفون حالهم معه، ويحاولون التكسب منه ما استطاعوا لمصلحة الوطن قدر الإمكان، وهو ما يجهله بسطاء العقول الذين يأخذون بالشبهة ويسارعون للاتهام والتخوين.!

وهو نفس المشهد الذي وقف بمنطقة يومًا أحد الشباب السلفيين، وما أكثر ما نعاني من السلفيين ضيقي العقول، ومحدودي الفهم والوعي والتأمل، وكان يصرخ بأعلى صوته منددًا بحسن البنا، مشبهًا إياه بأنه كان عبدا للملوك، منافقًا لهم، يخطب ودهم على حساب دينه، وقال: ألم يقترح يومًا على الملك فاروق أن يكون خليفة للمسلمين؟ وينادي بهذا الأمر بعد سقوط الخلافة، ورغبه في هذه الدعوة، ثم عقب مستهينا: أهذا هو الإمام المفدى والداعية الشهيد؟!

ولا شك أن هناك أعين لا تبصر إلا الصور القذرة، ولا تأخذها أبدًا مشاهد الجمال، ومن ثم تحاول أن ترى كل شيء حولها من جنس هذه القذارة، حتى ترتوي عفنًا ونتنًا، وهو بالضبط ما ينطبق على هذه العقول التي تنتسب للتيارات السلفية المتشددة، ونقول لهذا العاتب: ماضر حسن البنا لو قبل فاروق دعوته، ودعا لنفسه بالخلافة لنفسه، وصار فعلا خليفة للمسلمين وبايعه الناس على ذلك؟!

أليس في هذا ضربة قاصمة للاستعمار الذي دأب دهورًا على وأد هذه الخلافة وتحطيم ملكها وسلطانها ونفوذها بين المسلمين؟! أي مكسب عظيم إذن كان الإسلام سيجنيه لو تحققت تلك الرغبة، وتمثل هذا الطموح على أرض الواقع؟!

ومهما تسأل ومهما تعلم، فلن يفهم هؤلاء شيئًا لا لأن عقولهم تتأبى على الفهم، ولكن لأن قلوبهم مظلمة قاتمة عاتمة.!

عرضت إحدى المجلات التي تُعنى بأخبار الفنانين والفنانات والموضة والأزياء ولاعبي الكرة من الشيخ يوسف القرضاوي أن يكتب فيها مقالات متتابعة، وسأل الشيخ واستشار بعض تلاميذه وأصدقاءه في هذا الأمر، فإذا بهم جميعًا يستنكرون هذا العمل، وقالوا كيف تكتب في مثل تلك المجلات المنحلة؟! لكن الشيخ كان أبصر ممن سألهم وأبعد نظرًا ورؤية ممن استشارهم فقال: إن هذه النوعية من الصحف والمجلات هي أولى ما نكتب فيها ونطرح فيها أفكارنا، لأن لها جمهورًا لا يقترب أبدًا من الكتابات الدينية، فما عسانا أن نذهب إليهم نحن، ونقدم لهم تعاليم الدين ومعالم الهداية.؟!

إن مأساتنا اليوم أننا نفتقد الحكمة والبصر والرؤية البعيدة، والحنكة في التعامل مع كثير من الأزمات والمشكلات.

مأساتنا في الحرفيين النصوصيين القشوريين الذين لا يرون أبعد من أنوفهم.!

شكرًا للمحن!

أي جنون هذا حينما يوجد شخص يُثني على المحن ويمدح وجودها ويثمن شدتها.؟!

وهل يوحد في الدنيا من يعشق الهم والغم والنكد؟

ولكن قبل الاستنكار لماذا لا نفكر بواقعية وننظر للجانب المشرق الذي تتركه فينا المحن والأثر الإيجابي الذي تتركه بيننا الشدة، إنها رغم مرارتها إلا أن لها فضل عظيم، وجميل لا تُنسيه الأيام ولا يمحوه الدهر.

تمنحنا البصيرة الضياء، وتضع أيادينا على البراهين والحقائق، والتي لو دفعنا في سبيل ظهورها كنوز الدنيا كلها ما كانت لتظهر أو تتجلى... المحنة وحدها هي من منحتنا كل ذلك بلا مقابل.!

أفلا يحق لنا حقا وفعلا أن نشكرها ونُثني عليها ونبارك حدوثها؟!

من يقول بأن المحنة شيء سيء؟

بارك الله في المحن، فهي المرايا التي تكشف النوايا، والشمس التي تجلي الظلام، والنور الذي يكشف حقيقة طبيعة النفوس ومعادن البشر.

بارك الله في المحن، ما أروعها وما أجل إحسانها إلينا، حينما نعرف بها العدو من الصديق والمخلص من المنافق، والصادق من الكاذب، والدعي من المقدام.

رضي الله عن المحن، فقد أبت أن تتركنا حيارى تائهين مخدوعين مضللين حتى تجلي لنا الطريق وتعري لنا الزيف، وتبين لنا الغيوم، وتوضح لنا الغبش.

ورغم هذا الخير العميم الذي تقدمه لنا إلا أننا نعيب عليها أو نأخذ عليها، شدة وضوحها، وبالغ أثرها حينما تعري الكذب والنفاق، فتتركنا في صدمة كبيرة، مدهوشين متعجبين فيما كشف لنا وأمامنا من حقائق لا تصدقها العقول.

نتألم منها، رغم أن ما تقدمه لنا هو الخير الكبير، وخدمة تجل عن التقدير، تؤذي نفوسنا رغم أنها تحمينا وتطهرنا من الطلاء الزائف.

نعم إنني ما زلت أتذكر، وكلما تذكرت كلما ضحكت على نفسي من سذاجتها وخفتها، وسهولة الضحك عليها وخداعها، نعم ما زلت أتذكر هذا الكاتب الذي كان يجول بقلمه ويصول، وكنا نحن نظنه بطلا مناضلا، وأنه امتداد للعقاد ومحمد التابعي ومحمد الغزالي، وهؤلاء الكتاب الوطنيين الذين كانوا يهاجمون الكبار دفاعا عن الشعب ومصالح الأمة غير هيابين لنفوذ أو سلطان.!

وكانت صحيفته تجسد لنا عصر فولتير وصرخة الأقلام الحرة التي تعلن صولة القلم وقدرته الكبيرة في التصدي للطغيان.. حتى بانت حقيقته وانكشف للجميع كأحقر ما ينكشف المنافقون.!

ولله در المحن.. فقد كان يمكن لنا أن نظل في هذا الخداع، نرفع هذا الخسيس إلى أعلى عليين، ونحن مخدوعين "مقرطسين" "مختومين على أقفيتنا" فشكرا لها ونعما بها، حفظت كرامتنا، وصححت ظنوننا، وأنارت بصائرنا ومنحتنا الطريق الذي نضع به الأشياء في موضعها.

لقد كانت المحن قديما هي الطريق الأمثل الذي يبين لك الصديق الحق من الرفيق الكاذب، كانت هي التي تختبر النفوس وتظهر لك أهل الود من أهل الضغينة والنفاق والكيد، لقد تغنى بها الشافعي رحمه الله ومدحها في شعره الذي تردده الدنيا إلى اليوم في قوله:

جَزَى اللهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ** وَإِنْ كانت تُغصّصُنِي بِرِيقِي

وَمَا شُكْرِي لهَا حمْداً وَلَكِن **عرفت بها عدوي من صديقي

وقيل أيضا:

إن الصديق الحق من كان معك ** ومن يضر نفسه لينفعك

حتى إذا ريب الزمان صدعك ** شتت فيك شمله ليجمعك

وما أروع هذا المبتلى وهو يعدد فضل الشدة عليه في قوله: " في مواقف الشدة تساقطت الأقنعة، وعرفت معادن البشر حولي، لم أبال بالغرباء ولكن صدمتني بشاعة الأقرباء.

وقف معي البعيد وصد عني القريب

خذلني من كنت آمل منهم أن يكونوا أول المساندين، حينها آمنت أن الحياة دروس وعبر وأن ثقتي وأملي بالله أولا، ثم لمن يستحق، وأن إيماني يفرض علي أن أكون فطنا يقظا فيما تبقى لي من عمر، عاهدت نفسي أن لا أخذل أحدا طرق بابي وطلب عوني في رخاء أو شدة، لأن الخذلان صفة خسيسة لا أقبلها لنفسي.

أخيرا أقول شكرا لأقدار الله التي كشفت لي ما كان خافيا، وأزالت عن عيني الغشاوة."

حقا ما أعجب المحن.. إنها تقلب موازينك وتدهش عقلك وتملك معيار قلبك، فمن كنت تبغضه بالامس، تكتشف أنه أخلص الناس لك، ويصير القرب منك، ومن كنت تحبه فيما مضى تصهره المحن لتكتشف أنه اسوأ الناس وأندلهم فيخفق بريقه في قلبك.. ومن العجب أن هناك من يتمنى لك المحنة حتى يثبت لك أنه أكثر الناس حبا لك وعناية بك، وهناك من يتمنى لك السلامة من المحن حتى لا تنكشف أمامك حقيقته ويظهر عواره...

حقا ما أعجبها.!

الانطباع الأول وهم أم حقيقة؟!

يتسم المحبطون دائماً بأنهم عديمو الحكمة والفطانة، والنظر للعواقب والنتائج، والغوص في أعماق المواقف والأعمال والأشخاص! أي أن رؤيتهم ضعيفة مشوشة،

ومن أبرز رذائلهم تقييم من يرونه من النظرة الأولى! ومع أول موقف يصدر منه، أو لفظة ينطق بها، دون أن يحسبوا في أنفسهم أو يفرضوا في ظنونهم، وجود دوافع أخرى ساهمت في صنع الأحداث!

وفي حياتي أعرف من كوّن رأيه وانطباعه عني لمجرد كلمة عابرة في ساعة غضب أو لحظة هرج، ومهما مرت السنون والأيام فلا تزال هذه الفكرة هي القائمة تجاهي.. ومهما ثبت من الأدلة المادية الحسية التي تظهر خلافها، ومهما رأى من الإمكانات والقدرات والنتائج التي حققتُها أمامه، فهو لا يستطيع أن يتخلص من الانطباع الأول الذي حفر في أعماقه النفسية.!

كثير من البشر يعانون من عقدة الانطباع الأول، وتعميمه على بقية عمر الإنسان ومواقفه، فيظل طوال حياته رهينا بهذا الموقف، وهي ثقافة غير ناضجة، تظلم الإنسان ولا تعطيه قدره الحقيقي، وهي من أساسها ضد فكرة الإنسان، الذي يتغير ويتطور في مواقفه وميوله، وتتبدل أحواله حسب الصروف والظروف الزمنية، ويستطيع أن ينتقل بين يوم وليلة من حال إلى حال، فيصير محموده مذموماً ومذمومه محموداً.. وقد تعجب حينما تعلم أن هذا الداء موجود في الإنجليز حسب ما أعلمتنا به (نبوية موسى) حين وصفتهم بقولها: والإنجليزي إذا فهم شيئاً واستقر في رأسه، لا يتنازل عنه مهما كانت الظروف ومهما ظهرت له الحقائق ، فهم في ذلك يتمثلون بقول الشاعر : "ما الحب إلا للحبيب الأول" فالرأي الأول له عندهم المكانة الأولى مهما كان خاطئاً وكل ما عداه خطأ لا يأبهون به"

فإذا فشل الإنسان في الدراسة، ترى من يصفه بأنه فاشل في كل حياته، وتظل صفة الفشل تلازمه أينما حل أو راح، حتى وإن ذهب إلى ميدان آخر، ونجح فيه، وجنى منه الألوف

والأموال الطائلة، والمكانة المرموقة، فسوف يظل في أعينهم فاشلاً.! لأنهم أسيرو الانطباع الأول!

ويالضيعتك إن لم تكن عليماً بذاتك.. مقدراً لإمكاناتك، غير عابئ بانطباعاتهم البلهاء التي لا سند لها من علم أو منطق.

وللنبي ﷺ سلوكه السديد في معاملة الأخطاء، التي نظر إليها على أنها عوارض تجيء وتزول، فلا ينهدم معها الإنسان، فربما تكون لبنة من لبنات بنائه.!

يقول (أسامة بن زيد) فيما رواه البخاري:

"بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: "يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، قلت: كان متعوذاً فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم".

لقد أخطأ أسامة ﷺ وفعل فعلاً لم يُرض رسول الله ﷺ ومع ذلك هل سجل له الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الموقف، ليكون علامة سوداء في تاريخه، تلاحقه كلما رُشح لموقع أو وظيفة.؟!

ويشيع بين الناس أن أسامة لا يصلح للقيادة، لأنه فعل كيت وكيت، وحدث منه كذا يوم كذا؟! أبداً لم يكن ذلك..

فقد أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فتفرق المسلمون من عند رسول الله ﷺ وهم مجدون في الجهاد، فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد دعا أسامة بن زيد فقال: يا أسامة سِر على اسم الله وبركته، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هذا الجيش.

إن أسامة يتولى القيادة مع ما سلف له من أخطاء، لأن المرء يتعلم من أخطائه، بل يكاد من شدة تعلمه، أن يتحول خطأه السالف إلى شبح يؤرق حياته ويحسب لخطواته من بعده ألف حساب.. وهو ما حدث لأسامة ﷺ حينما استدعاه علي بن أبي طالب ﷺ ليكون معه في

حربه على معاوية فكان رده على علي: لو أدخلت يدك في فم تنين لأدخلت يدي معها، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله.

بعض الناس تنقبض نفسك لرؤيتهم من الوهلة الأولى، وما أن تجلس إليهم وتتحدث إليهم، سرعان ما تزول وحشتهم من قلبك، ويتبدل مكانها إلفاً ووداً.. فنشعر ساعتئذ بمدى الظلم التي تحمله أعيننا وتظنه أوهامنا لكثير من الناس، وأننا إذا لم نتحل بالحكمة والروية، فإن نفورنا وخصومتنا تكون عظيمة فاحشة.

الانخداع بالمظاهر شيء يجب الحذر منه، وعدم الاعتماد عليه في فهم الناس.. وذو الرمة كان من الذين اكتشفوا زيف المظاهر وخداعها حينما قال:

على وجه مي مسحة من ملاحة ** و تحت الثياب الخذي لو كان بادياً

كذلك ميٌّ فِي الثِّياب إذا بدت ** وأثوابها يُخفين منها المخازِيا

ألم تر أن الماء يخبث طعمه ** وإن كان لون الماء أبيض صافيا

ويرى بعض الباحثين: أن النفس البشرية خليط من المشاعر التي يصعب التحكم بها، فإن الحكم على أي شخص من النظرة الأولى أو بمجرد مقابلة عابرة، خطأ يترتب عليه مظالم للآخرين، والدليل أننا نبني في بعض الأحيان صوراً مثالية لشخص ما، وعند أول امتحان نصاب بصدمة، وهذه النتيجة الطبيعية للحكم المتسرع..

ويرى آخر: أن الحكم على الغير يحتاج وقتاً كافياً لتمحيص ودراسة الشخص الذي أمامنا، وهذه معرفة ليست بسيطة كما يتوقعها البعض، لأن الإنسان يتألف من وحدة مركبة تتضافر في تشكيلها مجموعة من العوامل النفسية والبيولوجية والاجتماعية."[1]

غاية القول أن الانطباع الأول موجود، وهو صادق في أحيان كثيرة، وموافق للحكم على أشخاص كثيرين، لكنه لا يمكن أن يكون هو القاعدة في الحكم على آخرين، والتعرف الدقيق على نفسياتهم.. لا يمكن أن نجعله محور التقييم، ورسم صورتنا الذهنية

[1] - جريدة اليوم السعودية – مقال الانطباع الأول حكم أبدي – د. موفق الغثيان.

للأشخاص، فما أسهل خداعنا لو جعلنا طريقنا إلى فهم الناس بالمظاهر، التي لا تعكس لب الحقيقة وكيان الشخصية.

حتى وإن كان الانطباع الأول صادقاً، وكان حكمنا على الأشخاص بشواهد من حياتهم، فإننا يجب أن نؤمن بأن الإنسان يمكنه التغيير من نفسه ومن طباعه ومواقفه.. فبقاء الحال من المحال.. وعلينا أن نساعده على هذا التغيير إن كان إيجابياً، ونرده عنه إن كان سلبياً.

والحكماء هم من يقيمون الناس بعيداً عن المظاهر والظنون، ويبنون حكمهم على المعرفة الحقيقية والمعاشرة الحياتية.

لقد جاء رجل يشهد لرجل بالصلاح عند أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقال له: أأنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال: أسافرت معه في سفر طويل يسفر عن أخلاق الرجال؟، قال: لا، قال: أعاملته بالدينار وبالدرهم الذي به يظهر ورع المرء من شرهه ؟ قال: لا، قال: لعلك رأيته في المسجد يمسك بالمصحف، يقرأ القرآن، يرفع رأسه تارة ويخفضها تارة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اذهب فلست تعرفه، وقال للرجل: ائتني بمن يعرفه[1].. وعمر ﷺ هنا يبَنى معرفته بالأشخاص على المعاشرة، التي تولد المعرفة الحقيقية.

أما الحسن البصري ﷺ فيرفض أن يكون الكلام – مجرد الكلام- مقياساً في تصنيفه الناس، وإنما جعل طريقه للحكم عليهم بالتأكد واليقين فيقول: "اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم، فإن الله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يُكذبه، فإذا سمعت قولاً حسناً فرويداً بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم، ونعمة عين، فآخه، أحببه، وأوده، وإن خالف قولاً وعملاً فماذا يشبه عليك منه، أو ماذا يخفى عليك منه؟ إياك وإياه، لا يخدعنك "

[1] - إحياء علوم الدين ٨٣/٢.

الفرق بين الثقافة والعلم!

ما تقدمت أمة من الأمم إلا كان العلم رائدها الذي يدفعها للقيادة ، وما تأخرت أمة إلا كان بينها وبين العلم حجاب وسدود ، والقراءة هي طريق العلم والباعث على التفوق والنهوض، والكتاب في حياة المتقدمين له قدسيته ومقامه في طريقهم للريادة المنشودة، التي لا تنال أبدا بالجهل وضحالة الثقافة، وما أراد الإنسان أن يسمو بنفسه، ويرقى بعقله ويشعر بتميزه كإنسان إلا بالثقافة والعلم والقراءة، التي أصبح حظها ضعيفا، ووازعها معدوما في بلادنا، مما أدى لتأخرنا عن ركب الحضارة، ومسيرة القيادة التي كنا فرسانها يوم كان العلم والكتاب رائدنا.

جمعتني إحدى المجالس بأستاذ جامعي في كلية الهندسة، كان الرجل يتحدث في السياسة ويهرف فيها بما لا يعرف، ويسوق في شأنها حشدًا من البراهين الفاسدة، التي لا تقنع صبيا صغيراً، لقد ظن أن درجته العلمية تؤهله للخوض في أي شيء، حتى مما ليس في تخصصه أو أي علم قرأ فيه ولو جملة واحدة.!

وكيف لا يفتي فيها وهوالدكتور والأستاذ الكبير الذي ينال الاحترام والتقدير والتقديم في كل مكان في المجتمع، ولا نعرف هل العيب فيه أم في هذا المجتمع الذي لا يستطيع أن يميز بين المثقف وغيره؟! فإذا هممت بالاعتراض عليه، سمعت من يقول لك: كيف تعترض على الدكتور أتريد أن تفهمنا أنك تفهم أكثر منه؟!

وربما تجد من ينعتك بأنك حاقد أو تعصف بك غيرة حاسدة، لأنك لا تملك ما يملك من الدرجة العلمية، وهذا لا شك خلل في الفهم وخلط في التصور، ووباء عقلي يضرب المجتمعات الجاهلة.!

كما تجد هذا أكثر ما تجده بين علماء الدين وخريجي الأزهر، الذين يتخرجون ولا دراية لهم بالتحديات والمؤامرات، التي يتعرض لها المجتمع المسلم، وما يحاك لدينهم من المحن المؤرقة، ورموزهم من الطمس والتشويه، ودعوتهم من التصدي والحظر، ولا يرون من هذا

شيئًا، لأنهم يفهمون الإسلام بصورة لا تعبر عن حقيقته، فهم لا يعرفون عن الإسلام إلا أحكام الغسل والطهارة وطاعة ولي الأمر، فترى منهم من يؤيد حاكما ظالما، ويقف في صف نظام علماني أو شيوعي أو نظام ملحد يبغض الدين، فماذا يقلق الإسلام إذن والمساجد مفتوحة، وكل الناس تصوم رمضان وهكذا يتصورون ..ومن ثم يقودهم سادتهم ليكونوا أداة يضربون بها التدين الحقيقي وحركاته الإصلاحية، ويستصدرون منهم الفتاوى التي تحكم على خصومهم بأنهم خوارج أو إرهابيون أو متطرفون، وهو ما فعله عبد الناصر قديما والاستعمار الغربي في بلاد المغرب ، حينما أغرى بعض الطرق الطوفية الجاهلة ليقولوا بأن من يحارب الاستمعار يحارب الله، لأن الاستعمار قضاء الله وقدره.

حدثني أحد أصدقائي الغيورين وهو يعلق على تصريح أحد علماء الفضاء في مسألة سياسية، والتي وصف فيها مصير مصر بالضياع، إن سقط حاكمها الدكتاتور فقال: "قابلت في حياتي نموذجين لا أكاد أنساهما أبدا فيما يتعلق بعلاقة الفرد بربه، النموذج الأول من الهند وكان أستاذا للفيزياء في جامعة الفاتح بطرابلس، فقد كان الرجل عالم ذرة مشهور جدا، ويحظى باهتمام ورعاية كبيرة في ليبيا حكومة وشعبا لمكانته العلمية، إلا أن ما جعلني في دهشة كبيرة كيف لهذا العالم أن يعبد بقرة من دون الله، كيف لم يهده عقله إلى أن هذا الكون الذي يعمل بدقة متناهية له إله صانع مدبر حكيم !

النموذج الثاني من الهند أيضا وكان مهندسا للميكانيكا، فقد تعطل مولد ضخم من إنتاج عملاق صناعة المولدات جنرال إلكتريك في مصر، وأخطرت الشركة التي تعطل بها المولد شركة جنرال إلكتريك لإرسال أحد مهندسيها لتصليح العطل الذي أصاب المولد بعدما فشلت كل المحاولات وبعد تدخل مهندسين كبار في ذات التخصص!

جاء المهندس الهندي من الهند، وما هي إلا دقائق وقد تبين له العطل ومن ثم قام بإصلاحه، الأمر الذي جعل كافة مهندسي الشركة المصرية في دهشة وعجب!

بقي أن تعرف أن هذا المهندس الهندي العبقري كان يعبد رجلا مثله، ولا يذهب ويجيء إلا وصورة إلهه معلقة في رقبته يقبلها غدوة وعشيا!

أقول هذا الكلام ردا على استغراب البعض من كلام العالم الكبير من أنه لو سقط هذا الحاكم فستنتهى مصر، وستكون خرابة وهيحتلها السودانيين والهكسوس وهنروح فى ٦٠ داهية !"

المشكلة إذن مشكلة ثقافة ومعرفة ودراية، لا تؤصلها المقررات المدروسة، وإنما يناط الوعي بها على الثقافة والمعرفة والقراءة والتزود من العلم ، والفصل بين الثقافة والعلم في مجتمعنا له جذوره التي أنبتها الاستعمار (عندما حرص على خلق متعلمين غير مثقفين ، لأن المتعلم المثقف كان من العناصر الفعالة في المجتمع، وكان دائما من دعاة تحرير الوطن والقضاء على أي سيطرة خارجية عليه ، ولذلك رأى الذين يخططون للنفوذ الاستعماري، أن يعملوا بقوة على فصل العلم عن الثقافة ، حتى يخرج علماؤنا من الجامعة وهم بلا رأي سليم ولا موقف ناضج في أي أمر من أمور الحياة)[1]

ولعل القراءة من أهم ما يساهم في تقويم هذا التشويه المبكر، وتستطيع أن تحقق الوعي المطلوب والفهم الرشيد في عقول المتعلمين التي تقود مستقبل الأمة على بصيرة وفهم، وإدراك لعللها وأدوائها، بالقراءة وحدها نقضي على هذا الفارق المزعج بين المتعلم والمثقف ليصير كلاهما مكمل للآخر.!

بالقراءة وحدها نكون جيلاً يقود حياتنا، متصديا للظلم مؤيدا للحرية داعما للعدالة.

(والثقافة الذاتية مسؤلية الفرد ولا يقع عبؤها على المدارس والمؤسسات التعليمية، وتستطيع الدولة أن توفر مناهل الثقافة والمعرفة للراغبين لكن تبقى مسؤولية الفرد تجاه نفسه فهو وحده القادر على تثقيف نفسه بكافة الطرق والوسائل إن أراد ذلك ووجد من نفسه الحافز على إنجاز هذا القصد.. حتى الفقير المعدم يستطيع أن يختلف إلى المكتبات العامة لصيب من الثقافة المتاحة له ما يطيب له أن يصيب)[1]

---

[1] عباقرة ومجانين – رجاء النقاش

[1]من مقال التعليم مسؤولية الدولة والثقافة مسؤولية الفرد – الأعمال الكاملة لثروت أباظة

وقد كان ثروت أباظة يتندر بقريبه (توفيق أباظة) الفلاح الذي يعمل بالفأس، و لم يدخل أي مدرسة وعلم، وثقف نفسه بنفسه، ونقل ديوان المتنبي بخط يده كاملا، لأنه كان فقيرا لا يستطيع شراءه، وكان مولعا بالشعر الذي أدلى فيه بنماذج رقيقة جيدة، ومنها ما قاله لأحد أصدقائه يُذكره بأيام الأنس التي عاشاها معا:

وعلى اقتراحك قد نزلت ** وقد نزلت على اقتراحي

فتمازجت أرواحنا ** كالروح والماء القراح

ونموذج كالأستاذ العقاد، لم يكمل تعليمه وإنما اكتفى منه بالمرحلة الابتدائية فقط لعدم توافر المدارس الحديثة في أسوان، وكذلك لموارد أسرته المحدودة، التي لم تتمكن من إرساله إلى القاهرة لإكمال تعليمه، فاعتمد على ذكائه الحاد، وصبره على التعلم والمعرفة، وثقف نفسه بنفسه، حتى صار من عباقرة الزمان ونوادره، ليس في العلوم العربية فقط، وإنما في الأدب الغربي كذلك، فتعلم الانجليزية واطلع على ثقافات متنوعة، وكثيرون من أدباء العالم قدامى ومحدثين، لم يكن حظهم كبيراً من التعليم ، ولكنها الثقافة الذاتية التي انطلقت بهم إلى آفاق العبقرية.

كل البشر شياطين!

هناك أناس يعتقدون أن البشر لا يعرفون معنى الطهر، فكل بشري لابد أن تكون به مسحة من الشيطان، يمكر ويحقد ويغدر، وأن كل مظاهر التقوى، ما هي إلا زيف يخفي وراءه مارد مريد، يوغل في الدواهي، ويغرف من الموبقات.!

أعرف بعضاً من هؤلاء، يريدون أن يحطموا كل مظاهر الطهر والعفاف في الإنسان، وينظرون للبشرية بمنظار أسود، لا يحسنون الظن أو يقدرون الأعذار.

لا ننكر أن في الحياة صوراً ممن يظنون ويعتقدون، لكنها ليست القاعدة الغالبة في حياة الناس.. هناك من إذا رأيناهم من بعيد حسبناهم آيات بينات، ولكننا إذا ما عاشرناهم تنكرت قلوبنا لأفعالهم وخصالهم.. لكن كل ذلك لا يمنع أن يوجد أتقياء أنقياء صالحون

خيرون.. لو اقتربنا منهم، فإننا نراهم بنفس العين التي تراهم من بعيد، ولو انكشفت لنا دخائلهم فلن تفرق شيئًا عما يظهرون به.. وليس معنى أنهم أتقياء أنقياء أننا ننسب لهم العصمة التي هي للأنبياء.. و إنما هي صورة أخرى من لطف الله وحفظه تعالى لعبادة المخلصين، قال الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[1]

و"النور الذي أشارت له الآية الكريمة هو المراد باللطف الإلهي، الذي يكون للأولياء والأتقياء، أو للصديقين من الرجال وهو من الحفظ والتأييد، لا من العصمة.

وقد كان من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل الإلهي أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وقال لعمر والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك يا عمر"

حينما ألف (وحيد حامد) مسلسل الجماعة الذي أخرجه ورتب مشاهده ضباط أمن الدولة، فحشوه بالأكاذيب والإفتراءات، التي لا تهدف إلا لتشويه صورة الإمام المجدد حسن البنا رحمه الله.. ذلك الرجل الذي شهد له القاصي والداني، أعداءه قبل أحبابه، بأنه كان من أولياء الله الصالحين، وأنه وهب حياته وروحه لله، وعاش ومات للإسلام.. لقد شاع المسلسل، وروجوا له ترويجاً عظيماً، ووضعوا لحلقاته تمويلاً ضخماً، حتى يؤتي أكله من هدم صورة الإمام وجماعته.. وجاء المؤلف يتحدث في الفضائيات، ويناقشه المحاورون حول بعض المشاهد التي لا صحة لها في حياة الإمام، فإذا به يهيج ويتشنج ويغضب ويرتعد وتصيبه حالة هستيرية و يصيح بأعلى صوته:

ماذا تريدون يا جماعة؟.. إن حسن البنا بشر.. بشر.. والله بشر.

وهكذا كررها مراراً حتى خرقت آذاننا، ليعلمنا أن معنى أنه بشر، أي أنه لابد أن نلفق له الأكاذيب ونلصق به الهنات..

[1] – الحديد : ٢٨

إن البعض حينما تعلموا.. أن من خصائص الإنسان أنه يُخطيء ويتوب، لم يتعلموا للأسف أن هناك قطاع ضئيل يشملهم الله تعالى بلطفه ومعيته فيرعاهم ويحفظهم من كل سوء.

وهكذا كانت عنصر البشرية.. جريمة حسن البنا.!

والحقيقة.. أنني لا أعرف ما هذا المنطق الأعور الذي يخون العقل، ولا يصدر إلا عن أناس غرقوا في وحل المعصية، ولا يجدون مندوحة إلا أن يبرروا لأنفسهم تقصيرهم في حق الله تعالى.. والحجة طبعاً موجودة وهي.. يا جماعة نحن بشر.. بشر.. والله بشر.

إن أهل الرجل وخلانه هم أعرف الناس به، لأنهم عاشروه.. فخرجت أمامهم كل أستاره.. ومهما جاهد هو في إخفائها فلن تستمر في الخفاء على طول الخط.. لكن الذين عاشروا حسن البنا بُهروا به، وما رأوا أمامهم إلا صفحة مضيئة لرجل القرآن، وما رأوا فيه إلا صورة مُثلى للسلف الصالح رضوان الله عليهم.

لا يقدس الإخوان حسن البنا، ولم يرد عن أحدهم أن رفعه لمرتبة النبوة، ولم يقل قائلهم: إنه ملك مطهر أو مبعوث رحمة معصوم، ومن قال بذلك فقد ضل وأسرف، لكن الأمر لا يعدو أن يكون فرط إعجاب بالرجل، الذي وهب حياته لله، ولم يكن له حظ من الدنيا التي ختمها شهيداً، مدرجةً دماءه في سبيل الله.

وما أروع ما رد به الراحل الفاضل (عمر التلمساني) في كتابه (الملهم الموهوب حسن البنا أستاذ الجيل) حيث قال: "يُنكر الناس علينا تقديرنا لحسن البنا، ولكن لنا العذر، فقد رأينا صورة من السلف الصالح، الذين كنا نسمع ونقرأ عنهم، ماثلة أمامنا وتعيش بيننا، وتتحرك أمام ناظرينا.".

وفي الوقت الذي كان حسن البنا باهراً في القرب منه، كما كان باهراً في السماع عنه.. نجد هناك من يصيبونك بالفاجعة حينما تقترب منهم.. فالقرب كما أشرت يكشف الأستار ويبدي العوارت.

لا تقتربوا يرحمكم الله

يقولون دومًا: لكي تحظى باحترام دائم، اجعل هناك مسافة بينك وبين غيرك، لأن القرب الزائد، يهدم الهيبة، ويزيل الحواجز، وتكون مرماك معرضة دومًا لأي هجوم أو إساءة تندم عقبها أنك أزلت الحجب بينك وبين من حولك.

كثيرون جنوا ألامًا ومآس يندى لها الجبين، واعتصرت أفئدتهم بالندم لأنهم تقربوا من غيرهم، أو فتحوا مغاليق قلوبهم لغيرهم، فأدخلوهم حياتهم وأقحموهم في تفاصيلها التي لم يصونوها ولم يقدروها.

ويردد بعضهم أننا كلما اقتربنا من الأشياء أكثر.. فإن هذا القرب يفسد معرفتنا بها، واستفادتنا منها، فلو اقتربنا من النار مثلا أكثر من اللازم، فإنها تلسعنا أو تحرقنا بدلا من أن تقدم إلينا الدفء الجميل، ولو اقتربنا من النور أكثر من اللازم، فإن عيوننا تعجز عن الرؤية ويصيبها اضطراب شديد في النظر إلى الأشياء.. وأحدهم يصور العلاقة بالآخرين كمن يسير في الطريق بسيارته، فكلما اقترب من سيارة الأخرين، كلما كان معرضًا للخصر والصدام، وكلما ابتعد عنها كلما نجا وسلم! ولعل هذه النظرة تنتطبق تمامًا على العلاقات الإنسانية والصداقة، فلو اقتربنا كثيرًا ممن نحب ونصاحب، لربما فقدناهم، وزال تمسكنا بهم بعد أن زال انبهارنا بسبب القرب الشديد، الذي كشف لنا بعض عيوبهم، أنهم عاديين جدًا مثلنا.

والناظر دومًا للعظماء يغفل عن أنهم بشر كالبشر، يعانون مما يعاني منه البشر وتجري عليهم كل أعراض هؤلاء البشر وخصائصهم.

ولا زلت أذكر كيف كان اندهاش الأستاذ (رجاء النقاش) حينما قدم من قريته في ريف المنصورة إلى القاهرة لأول مرة عام ٥١ ودخل الجامعة، وكان خياله ممتلئا بالصور المثالية لكثير من الأدباء والمفكرين، الذين كان يقرأ لهم ويتعلم من كتاباتهم، فلما تعرف عليهم واقترب منهم، كانت صدمته فيهم، إنهم مبدعون لكنهم فوق هذا مثل كل الناس يغارون

ويتخاصمون ويتنافسون ويغضبون ويخطأون، لقد تحطم كل ما كان يرسمه لهم في نفسه من صورة زاهية راقية، وأدرك النقاش متأخرًا أن العيب ليس فيهم ولكنه فيه هو.! لأنه كان أسير الخيال البعيد عن الواقع.!

وحدهم هم الأنبياء وكثير من العلماء من تجدهم ثابتون لا يتغيرون، فقربك منهم هو نفس بعدك عنهم.. تجدهم كما هم بلا تغيير أو تحريف أو تمثيل أو تزييف ..لقد كان رسولنا الكريم ﷺ يمتدحه القريب الذي يعاشره، قبل البعيد الذي يسمع عنه ولم يشاهده.. أما بقية البشر فمستور عنا كثير من مساوئهم التي قد تصدمنا فيهم وتغير ظنوننا بهم.

القمر نفسه.. تراه من بعيدٍ قمرًا مضيئًا وتجعل منه رمزًا للجمال، ولا تجد أثمن منه لكي تشبه به كل ما يروق لك من معالم الجمال، لكنك في الحقيقة إذا اقتربت منه وصعدت إليه، تكتشف أنه رمال وصخور قد تخجل معها من تشبيهك السالف!

وإننا لنجد في قصة (العبقري الملعون) التي كتبها (جيوفاني بابيني) وذكرها النقاش في كتابه تحت المصباح، صورة للصدمة التي اعترت ذلك الإنسان الذي كان يحب كاتبًا فنانًا من خلال قراءاته لقصصه الجميلة، وكان مولعًا بأفكاره وآرائه وأطروحاته، ويتمثل نفسه أحد أبطال قصصه، وظل هذا المعجب المبهور يسعى لمقابلة نجمه المفضل والمثالي حتى نال ما أراد، وذهب للقائه، فماذا وجد ياترى؟ يقول: شعرت بخيبة الأمل عندما وقع نظري على غرفة ذلك الأديب الذي أعشقه، وكانت غرفته عادية، لم تكن تختلف عن سائر الغرف المألوفة، وكنت أتخيلها صومعة قديس أو عرين أسد، وكنت أسأل نفسي في استنكار، أهذا حقا بيته أم بيت أحد أقربائه؟ حتى رأيت أمامي رجلاً ضئيلا في حوالي الخمسين يحييني بلغة فرنسية صحيحة، فارتعدت لمرآه، أيعقل أن يكون هذا هو رجل أحلامي؟ هذا الرجل الضئيل الذي يرمقني بعينين صغيرتين وتتفرج شفتاه عن ابتسامة هي أقرب إلى ابتسامات البلهاء والسذج؟ أيعقل أن يكون نجم أحلامي؟ هذا الرجل الذي يرتدي ثوبًا أسودًا ويضع يديه في جيبه كما يصنع ضابط أو موظف على المعاش؟ هل هذا هو الرجل الذي جعل قلبي يخفق بروعة آثاره وقوة أسلوبهلم، لم أكن أصدق هذا ولم أستطع أن أخفي

دهشتي فقلت له: هل أنت الكاتب الذي أبحث عنه والفنان الذي كتب كذا وكذا فقال في هدوء وابتسام: نعم أنا هو ثم داعاني للجلوس وسألني حاجتي.

جلست مرتبكًا فقال لي: أراك أحد المعجبين الذين يأتون لرؤيتي، وهذا أمر يسير جدًا، وأستطيع أن أقدم لك كل ما تريد ثم أسرع الى مكتبه وأخرج ورقة ومجموعة من الصور، وعاد ثانية يستأنف حديثه: هذا بعض تاريخ حياتي مدونًا بالفرنسية، وهذا فهرس كامل بجميع مؤلفاتي، أي صورة تعجبك؟ إنني أظن أن أحسن صورة ما كان جانبيًا، ولكن لك الاختيار ثم قدم لي كتابًا صغيرًا وقال لي: هذه أشهر المقالات التي نشرتها كبرى الصحف عن مؤلفاتي، ثم مضى في حديثه قائلا: أليس هذا ما تحتاج إليه؟ إنك تريد أن تعرف كيف أكتب؟ سوف أخبرك: إنني أعمل أربع ساعات في اليوم، ولا أكتب أكثر من خمسين صفحة في جلسة واحدة، إنني لا أستعمل الكتب القديمة ولا المعاجم البالية، وأنا أكتب بدون تفكير كأني آلة، فإذا أردت أن أكتب شيئًا فما علي إلا أن أمد يدي وأخرج ما أحتاج إليه، إني لست أحد أولئك البلهاء الذين ينتظرون الوحي والالهام، فإنني أكتب بانتظام وفي أوقات معينة"

ولم يسعد المعجب بهذه الصورة التي رآها، والتي كانت مخالفة تمامًا لانطباعه عن نجمه المفضل، وتحت تأثير الصدمة، انتهز هذا المعجب فرصة انشغال الأديب بحديث تليفوني وفر هاربًا، يقول: اندفعت نحو الباب وتدحرجت على السلم، وبدون أن أشعر وجدت نفسي خارج المنزل، وما كدت أن أصل إلى بيتي حتى ألقيت جميع مؤلفات ذلك الملعون إلى النار.!

ويعبر لنا الأستاذ رجاء النقاش عن هذا المعنى بقوله: "مطلوب منا أن نكون مثل الطيور التي تلتقط الحب ثم تطير في الفضاء، وترفرف بجناحيها في الهواء الطلق، أما إذا التصقت بالأرض دائما وغرست منقارها في الطين فسوف تفقد كل شيء."

ومن الغريب أن أحد هؤلاء الأدباء إذا حاول يومًا أن يروي شيئًا مما يحدث له، كأن يكون ذنبًا أو ذلة وقع فيها، أو تصرفًا لا يليق، فإن الناس والقراء وأولهم هؤلاء المفتونون به، لا

يتنبهون إلى المغزى المطلوب تصوره، وهو أنه بشر كالناس، ولكنهم يأخذون ماحدث كذلك على سبيل التندر والتسلية أو التواضع الجم من الأديب والمفكر المشهور الذي يريد أن يقول لهم أنا مثلكم.

وهؤلاء لا يمكن إفاقتهم من غيبوبتهم كما قلنا الا بالقرب ممن يعظمون.. ساعتها فقط يفيقون على وهم كبير.. وصنف آخر يغالي في تقديس أوهامه فيصور من يتوهم ملائكيتهم أنهم فوق الملائكة، وأنهم معصومون، وأن العيب الكبير الذي يصيبهم أنهم يعيشون في دنيا الناس، وبعضهم لو رآى أحد هؤلاء يضحك مجرد ضحكات بسيطة، لقامت القيامة إذ كيف يضحك من يظن فيه أنه ليس من جنس البشر.. أذكر أن داعية في قريتنا كنا ألفناه دومًا بملابس الدعاة التي انطبعت في أذهاننا بأنها ثياب أهل الله.. ويومًا ما ذهب هذا الداعية للقاهرة لقضاء بعض شؤونه مرتديًا قميصًا وبنطلونًا.. لقد كان حديث الناس يومها وبعضهم قد استنكر ما فعله بشدة.. مع أن ما فعله شيئا عاديًا، لكنهم يريدونه أن يسير حسب أهوائهم ويعيش في إطار ظنونهم.

وحكى لي أحدهم يومًا أنه تقدم للعمل بمؤسسة دعوية خيرية، وكان يظن مما يسمع ويُحكى، أنه سيعمل مع أفراد يشبهون الصحابة في أخلاقهم وسلوكياتهم ونفسياتهم، ولما اندمج في العمل، وجد كيدًا وخصومة وحقدًا وحسدًا وتربصًا وأشياء أخرى ماكان يتوقعها أبدًا أو تأتي في خياله.. فجلس مع نفسه برهة وأخذ يسخر من ظنه القديم.

إن القرب يفسد علينا كثيرًا من حياتنا، نفقد فيه أشخاصًا، ونفقد فيه شعورنا بالجمال ونفقد فيه أشياء كان يمكن أن تنفعنا كثيرًا.. ألا إن البُعد مهارة لا يتقنها إلا الحكماء الحصيفون.

نعم.. أبيح الكذب

نعرف جميعًا تلك القصة الشهيرة، التي تروي أن الإمام البخاري ذهب يومًا لطلب حديث من أحد الشيوخ في بلدة من البلدان، ولما حضر عند الشيخ وجده يسعى خلف فرسه الذي فر منه ويوهمه أن بيده طعامًا حتى أتى إليه الفرس فأمسك به، فرفض البخاري ساعتها أن

يأخذ روايته عن الشيخ، وقال: إن الذي يكذب على الدابة، لا آمن أن يكذب علي رسول الله صلى الله عليه وسلم.!

ومع اكباري للإمام البخاري وتقديري له ولتحريه العنيف في طلب الحديث وتدوينه، فإنني أرى أنه عنيفا في تقييم الموقف، وأنه تشدده مبالغ فيه متجرد من الواقعية، فليس من المعقول أن يكذب الرجل في حديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، لأنه كذب على الدابة التي يتوقف عمل حياته لهروبها منه.

ما أروع الوضوح والصدق، وما أخبث الكذب والخداع، والذي يكذب عليك في الأمر الصغير، يرى الكثيرون أنه قد يكذب عليك في الأمر الكبير، لأنه استسهل مبدأ الكذب واستساغه ولا يمنع أن يستخدمه في كل المواطن.

لكن هناك أناس ينظرون للكذب نظرة مختلفة، فهم يرون أن الكذب في الأمور الصغيرة، أو الأمور التي قد تُغضب من حولهم، أو تُسبب لهم ضيقًا في الحياة، نوعًا من البر والإرضاء لمن يحبونهم، وهم يحتجون بأن الحديث الشريف أباح الكذب في ثلاث مواطن، كنوع من الرخصة في الأمر حتى لا تتولد الشحناء، وهؤلاء الناس ينظرون لأنفسهم على أنهم أصحاب عقول كبيرة، ونفسيات حكيمة، ولكن تحدث المشكلة الكبيرة حينما يصطدمون بمن يبغضون الكذب ولا يجزئون مبادئهم، ويتطاير منهم الشرر لو علموا أنك كذبت عليهم في شيء مهما كان ضئيلا صغيرًا.

ولنا هنا أن نتساءل باحثين عن جواب: هل يمكن فعلا أن من يكذب في الأمر الصغير يمكن له أن يكذب في الأمر الكبير.؟

وهل يمكن أن نكون من أهل الصدق إذا كذبنا مثلا من أجل الإصلاح وتهدئة نفوس من حولنا أو الحفاظ على مشاعرهم.؟

أنا عن نفسي من أولئك الذين يمكن لهم أن يكذبوا في الأشياء الصغيرة التي قد تُفسد الود مع البعض أو تحزنهم، لكنني مع هذا التساهل، أدرك وبقوة، أنه لا يمكن لي أبدا أن أتساهل

أو أقبل الكذب في الأمور الكبيرة، التي يتوقف عليها بيان حال أو مصير إنسان أو وضوح في المواقف.

أتساهل في حالات.. لكني أتشدد في حالات أخرى، أي أنني أتمتع بموهبة وقدرة على الفصل بين المواقف، والاختلاف بين المناسبات، فليس الصغير كالكبير، وليس الهين كالمهول.

وأرى أن هذا من حكمة الحياة والدراية بها، وحسن المسير فيها والتعامل الجيد مع أفرادها.. والذين يرون عكس ذلك، بأنه تجزيء للمبادئ لا نرد عليهم إلا بالحديث النبوي الذي رخص الكذب في ثلاثة أشياء وكلها أشياء تحرص على إبقاء الود بين الناس.

وفي قصة شهيرة أخرى عن الاقتصادي المصري الكبير القديم (طلعت حرب)، الذي أحب الشاب أحمد سالم وقدمه على كثير من الموظفين وأستند إليه كثيرًا من المهمات الكبيرة في بنك مصر برغم صغر سنه، فيومًا ما مرض (طلعت حرب) وذهب أحمد للاستفسار عن صحته، فقال له: أرجوك يا أحمد أن تحضر معك صباح الغد طبق فول مدمس من محل التابعي وهو من أشهر محلات الفول في ذلك الوقت، وذهب أحمد إلى عمله، ثم سهر مع أصحابه سهرة حمراء، وفي الصباح ذهب إلى حلوان لعيادة طلعت حرب بعد أن نسي كل شيء عن طلب الفول المدمس، ولما صار بين يديه سأله طعلت حرب هل نسيت الفول المدمس؟ واضطر أحمد أمام السؤال المفاجيء للكذب، وادعى أنه ذهب في الصباح إلى محل التابعي فوجده مغلقًا لوفاة أخيه، وسكت طلعت حرب ولم يقل شيئًا.

وبعد انصراف أحمد سالم، استقل طلعت حرب سيارته وذهب إلى محل التابعي، ووجد المحل مفتوحا، ودخل وجلس إلى إحدى الموائد واستدعى الحاج التابعي صاحب المجل وقال له: البقية في حياتك.. وفتح الحاج التابعي عينيه دهشًا فسأله طلعت حرب ألم يمت شقيقك؟ قال الحاج التابعي لا، وعاد يسأله ألم يمت أحد من أقاربك؟ قال الحاج التابعي لا.. وسأله هل تأخرت اليوم في فتح المحل، فقال التابعي: لا فتحت المحل الساعة ٥ صباحا كعادتي كل يوم، وهنا قام طلعت حرب واتجه إلى مكتبه في بنك مصر، وأصدر قرارًا

بفصل أحمد سالم من جميع مناصبه في الشركات والمؤسسات التابعة لبنك مصر، ولما سئل طلعت حرب وقتها عن هذا العقاب وهل يساوي طبق الفوق المدمس كل هذا العقاب الصارم؟!

رد بقوله: إن الرجل الذي يكذب عليّ في طبق فول مدمس، سيكذب علي في مليون جنيه.. إن هذه وظائف ثقة، وما دام قد فقد ثقتي، فهو لا يصلح للعمل معي.!!

ولكن ألم يفكر طلعت حرب أن خجل الشاب أحمد سالم وخوفه من أن يتسرب إلى نفس طلعت حرب شيء من هم وضيق هو السبب في هذا الكذب وأنه بدافع حبه له؟

اختلف أو تتفق معي، لكنني أجزم أن هؤلاء الذين يتصلبون في هذه الأمور بهذا الشكل، ولا يفرقون بين المواقف والمواطن صغيرها وكبيرها، ولا يملكون القدر على التمييز بين الأمور، هم أناس متصلبون أو معقدون مهما كانت مكانتهم.. فأنا يمكن لي وبكل سهولة أن أكذب على الدابة حتى أتملكها وأمتطيها وأقضي عليها معاشي ومهماتي، لكنني لا يمكن أبدًا أن أكذب على رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في الرواية والحديث.. أي أنني أبيح الكذب في مواطن وأحرمه في مواطن أخرى.. لا تخرج عن حد الشرع والدين.

محنة الملتزمين!

أنا إنسان عادي وبسيط كأي إنسان، وليس معنى انتسابي للأزهر وارتقائي للمنابر، أو انتمائي للحركات الدعوية، أن أكون أهدى الناس وأقوم الناس، وأقربهم إلى الله تعالى.! إن هذا تصور خاطيء مأفون، والذي يظن ذلك لا يفهم القضية، ولا يستوعب معالم المسألة.. فدعوني أشرح لكم وجهة نظري وأعرض عليكم ماهية الأمر برفق وبساطة.

أنا مسلم كأي مسلم، قد يخطيء ويذنب ويعصى ربه.. وهذا هو حالي الذي أعرفه عن نفسي، ولا يمكن أبدًا لأي إنسان أن يُذكِرَني بأنني نعتُ نفسي يوما بأنني المهدي المنتظر، أو إمام الهدى وولي المتقين.. كل مافي الموضوع، أنني أحب ديني، وأقف بجواره، وأنصر دعاته

وتياراته، وأرجو رفعته في زمن الانحراف والضلالات والفتن، وهنا تحديدًا لا يأتيني أحد من الناس حينما يراني على خطأ أو معصية ويقول لي ساخرًا:

يا شيخ ازاي؟ كيف تفعل ذلك؟!

يا إمام لا يصح فعلك هذا..

يا قدوة عيب عليك فعل هذا.!

إن الناس إذا رأوا رجلا غير ملتزم يدخل المساجد، ويؤيد حزبًا دينيًا يسخرون منه ويقولون: فلان استشيخ اليومين دول، وفلان نازل عليه الوحي من السماء، وإذا رأوه في حياته الطبيعية يرتكب خطأ، أو يقترف معصية من المعاصي، يسارعون في اتهامه بأنه منافق وأنه متناقض، وأنه صاحب شعارات مزيفة، ويتعامل بوجهين.!

أنا أعرف وأقر بأن من يقول كلمة الدين، ويأمر الناس وينهاهم، لابد أن يكون فاعلا لما يقول، ومنفذًا لما ينطق به، ولكن لا ضير أبدًا، ولا مانع من أكون من أهل المعصية، ورغم ذلك مناصرًا لديني محبًا لطريقه مؤيدا لحزبه داعما لدعاته وصفه، لا يمنع هذا أبدا أن أكون كذلك، بل على العكس فوارد جدًا أن يكون موقفي هذا رغم كوني عاصيًا مذنبًا سببًا رضاء ربي ومغفرة خالقي، فكل خير نقدمه لقضية الدين مهما صغر، يكون له أثره ونتائجه الطيبة، وهل يعدو هذا البناء الشامخ الكبير، إلا أن يكون أحجارًا صغيرة تراصت وتماسكت وتلاحمت، حتى صعدت به للسماء؟!

منذ أيام أرسل لي صديقي رسالة عبر الواتساب، قرأتها ورأيت في قصتها عبرة جليلة، وشيئًا مما أريد أن أعبر عنه من أفكار تصحح كثيرا من التصورات الخاطئة في حياتنا وعقولنا، فرجل لص مجرم معاقر خمر، تمكن أن يقدم خدمة جليلة للدين، وأن يعلم أحد الأئمة الكبار معنى الثبات على الحق.!

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: (كثيرًا ما كنتُ أسمع أبي يقول:(اللهم اغفر لأبي الهيثم، اللهم ارحم أبا الهيثم، فقلتُ له: ومن أبو الهيثم يا أبت؟ فقال: رجلٌ من الأعراب لمَ أرَ وجهه! ففي الليلة التي سبقت جَلدي وضعوني في زنزانة مظلمة، فوكزني رجل وقال: أأنتَ

أحمد بن حنبل؟ قلتُ: أجل قال: أتعرفني؟ قلت: لا، فقال: أنا أبو الهيثم اللص شارب الخمر، قاطع الطريق مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني جُلدت ثماني عشر ألف جلدة متفرقة، وقد احتملتُ كل هذا في سبيل الشيطان، فاصبر أنتَ في سبيل الله يا أحمد! ولما أوثقوني وبدأ الجلد كنتُ كلما نزل السوط على ظهري تذكرتُ كلام أبي الهيثم، وقلتُ في نفسي: اصبر في سبيل الله يا أحمد.!)

وتستكمل الرسالة حديثها لتقول: فإن لم يكن أحدنا كابن حنبل، فليكن كأبي الهيثم! نحب الحق وننصره ولو كناَ غارقين في الباطل، حتى لا نجمع على أنفسنا مصيبتين، نحب أهل الطاعة ولو كنا غارقين في المعصية.. لعل الله أن ينفعنا بمحبتهم.. نكون لله مهما نال الشيطان منا.. نحب المحتسبين وإن لم نكن منهم.. ما المانع؟! أفخر بديني وأدافع عنه وأستميت لأجله وأدافع عن الفضيلة، وإن كنت مقصرا ومذنبا، كم نفع الله ورفع قدر بعض المقصرين بسبب صدقهم في نصرة الدين وردهم على من تسول له نفسه الجرأة على تعاليم الشريعة.

أيها الناس إنني من العصاة، لكنني مع هذا أحب ديني وأحب أهله وأنصر دعاته وأؤيد حزبه، ولن أفرط أبدًا في الوقوف في صفه، مهما كنت عاصيًا أو مذنبًا، أما أنتم فقولوا ما شئتم أن تقولوا، وانعتوني بما شئتم أن تنعتوا: منافق، كاذب، متناقض، بوجهين، قولوا ما يحلوا لكم، لكنني أطمع في رضاء ربي.!

فرق كبير بين منية النفس وطموح الذات، وبين الإمكانات التي تملكها لكي تحقق لك هذا الطموح! إنها قاصرة ضئيلة متواضعة، لكن لا يمنع وأنت في هذا الضعف أن تتمنى وتعمل وتحاول المرة تلو المرة لتبلغ ما تريد.. ومن العيب ان يوجد هناك من يحاول إحباطك وإثناءك عن طريقك وغايتك ورجائك.

رأيت بعضهم يوما يعيب على شيخ من شيوخ الدين أنه يناظر بعض العلمانيات اللاتي لهن ريبة في بعض ما جاء به الإسلام لكنهن كن كاسيات عاريات، وقال القائل: كيف له أن يأتي مع هذه المتبرجة، وكيف له أن يتحدث إليها وهو يرى ما ظهر من مفاتنها؟

وأمام أسئلتهم لسنا مطالبين بالجواب ولكننا مطالبين بطرح أسئلة أخرى نريد لها جوابا!

إذا لم يتصدر هذا الشيخ الجليل صاحب العقل الوافر والحجة البالغة لضحد هذه الشبهات التي تطرحها مثل هذه المرأة ويظهر هزيمتها أمام المشاهدين، ألا يكون ذلك خيرا كبيرا ومكسبا عظيما؟

أكان الأفضل له ذلك أم أن يمتنع من الظهور والمناظرة بحجة أنها متبرجة؟! هناك في فقه الأولويات موازنة مطلوبة بين المفاسد والمفاسد والمصالح والمصالح والمفاسد والمصالح، وللمرء الفطن أن يدرس ويقارن بين خسارته ومكسبة، حتى تكون خطواته محسوبة مدروسة.

أما سطحيو التفكير فلو أنه اعتبر لكلامهم فلن يجني أي خير في دنياه.

الأزهر.. ليس شريفا كله!

حينما وصل الطاغية محمد علي إلى حكم مصر، رأى أن يُضعف السلطة الشعبية التي أتت به، لأنها يمكن لها وبكل سهولة أن تطيح به كما جاءت به، وكونها تمثل سدا منيعا أمام الكثير من أطماعة وشهواته في السلب والسيطرة والنهب والطغيان.. فعمل هذا الطاغية جاهدا على وأد هذا النفوذ الشعبي من خلال الإطاحة بزعيمه عمر مكرم، والحكم عليه بالنفي إلى دمياط.

وكان رحيل السيد عمر الى دمياط مشهدا مؤثرا، شعر الناس مع هذا القرار بحجم النكبة وعظم الخسارة التي منيوا بها، فالرجل لم يكن في حياتهم شخصا عاديا، وإنما كان حاملا لهمومهم، كاشفا لكروبهم، يجاهد من أجلهم، ويدافع عنهم، ويرد مظالمهم، ولكنهم أمام عسف الحاكم الباغي لم يملكوا إلا أن يسكبوا الدمع في وداعه بعواطف مكلومة وقلوب ملتاعة يعصف بها الحزن العميق.

قال الجبرتي: " وشيعه الكثيرون من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله، حزنا على فراقه، واغتم الناس لسفره وخروجه من مصر، لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس

لتعصبه لنصرة الحق، فسار الى بولاق، ونزل في المركب، فسافر من ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج إليهم الى دمياط".

هذا حال جمهور الناس وبعض المعممين الصادقين، لكن الموقف كان كفيلا أن نرصد فيه حالة أخرى وهي حالة العمائم الضالة الخائنة الفاسدة التي جعلت من ذواتها خدما للحاكم ومطية تحد قديمة، تدافع عن زوره، وتبرر بغيه وظلمه، وتحرض على خصومه، وتشوه أنداده، وقد كان لهم موقفهم الحقير المتدني الذي ين ينساه التاريخ ولن يغيب من صفحاته حينما تعاملوا مع محنة هذا الزعيم الوطني بإفراط من الخسة والنذالة التي لا نظير لها.. لقد شاركوا الوالي في مؤامرة دنيئة ليوقعوا الشيخ ويصدق عليه قرار النفي، وبعد أن تم للباشا ما أراد.

المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي تحدث عن هذه الخيانة فيما نقل عن الجبرتي، وسجلها في كتابه عن محمد علي فقال:

ذهب الشيخ محمد المهدي عن إظهار يلتمس المكافأة على تدبير المؤامرة، فطلب وظائف السيد عمر فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الإمام الشافعي ونظر وقف سنان باشا ببولاق، وطلب كذلك، ما كان منكسرا له من راتبه من الغلال نقدا أو عينا مدة أربع سنوات، فأمر محمد علي بدفعها اليه نقدا من خزانة الحكومة وقدرها خمسة وعشرون كيسا "وذلك كما يقولي الجبرتي – في نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر".

ولم يكتف الشيوخ بالتواطؤ مع محمد علي باشا على الوقيعة بالسيد عمر، بل أخذوا بعد نفيه يعملون على النيل من سمعته، ولعلهم رأوا مظاهر حب الناس له حزنهم لفراقه، وعطفهم عليه، فأرادوا أن يحاربوه بسلاح الافتراء والتشهير، ليسوغوا فعلتهم، فكتبوا عرضا لإرساله الى الآستانة يبررون فيه عزل السيد عمر من نقابة الاشراف ونفيه، نسبوا إليه فيه، انه ادخل في دفتر الاشراف اسماء اشخاص ممن اسلموا من الاقباط واليهود، وانه قبض من محمد بك الالفي مبلغا من المال ليمكنه من حكم مصر في أيام قيام الجمهور على أحمد خورشيد باشا الوالي السابق، وأنه كان متواطئا مع الأمراء المماليك حين شرعوا في مهاجمة القاهرة يوم

الاحتفال بوفاء النيل سنة ١٨٠٥، وانه أراد اخيرًا أحداث فتنة بين الجمهور ليخلع الباشا ويولي خلافه.

وقد نمق الشيوخ هذا البيان، وطافوا به على زملائهم ليوقعوا عليه، فامتنع كثير منهم عن التوقيع، وبرءوا السيد عمر مما رمي به وقالوا: "هذا كلام لا أصل له"، وحصلت مشادة بين رؤساء الشيوخ المدبرين لهذا المنشور وبين الممتنعين عن التوقيع ، ثم غيروا صورة المنشور، وخففوا لهجته ليحملوا زملاءهم على توقيعه فامتنع كذلك بعضهم، وكان اشدهم اصرارا على استنكاره والامتناع عن توقيعه السيد احمد الطحطاوي مفتي الحنفية، وكان من العلماء الصالحين المتنزهين عن المطامع الدنيوية، فسخط الشيوخ عليه وتهددوه بعزله من منصبه، فلم يعبأ بهم، فعزلوه، وولوا بدله الشيخ حسين المنصوري، وخلع عليه محمد علي باشا خلعة الافتاء ، فلم يكترث السيد الطحطاوي لهذا الأمر، ولم يأبه له، واعاد الى الشيخ السادات الخلعة التي خلعها عليه من قبل حينما تولى الافتاء، فاستاء السادات من هذا العمل، وعده إهانة كبرى له، واستمر السيد الطحطاوي يقبح عمل الشيوخ. واعتزلهم في داره "وهم يبالغون في ذمه والحط منه لكونه لم يوافقهم على شهادة الزور، كما يقول الجبرتي، فكان عمل الطحطاوي حجة بالغة على نفاق الشيوخ ورياءهم.

خلا الجو لحساد السيد عمر مكرم والمؤتمرين به، ولكنهم في الواقع قد جنوا على أنفسهم وعلى مكانتهم ونفوذهم، فان المؤامرة التي دبروها قد أسقطت منزلتهم في نظر الجمهور وفي نظر محمد علي باشا، فالجمهور رأى في عملهم معنى الغدر والخيانة، ومحمد علي رأى فيه الضعة وصغار النفس، فلم يبق لهم عنده ذلك الشأن الذي كان لهم من قبل، ولم يعد يعبأ برأيهم، وسقطت تلك الزعامة الشعبية التي كانت لها المكانة العظمى، والقول والفصل في تطور الحوادث مدى عشر سنوات متعاقبة، وزالت عنهم تلك الهيبة التي اكتسبوها بجهادهم واخلاصهم وتضامنهم، وأضاعوا بتحاسدهم وتخاذلهم، ودالت دولتهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وحقت عليهم الآية الشريفة "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

وقد سجل عليهم الجبرتي رأيه فيهم بقوله: "ان الحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلد، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض"، وقال في موضع آخر: "وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس، وانهمكوا في الامور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية".

ولعلنا من المقال يتضح لنا أن الازهر ليس طاهرا كله، وليس شريفا كله، ولكنه بكل صراحة ووضوح وواقعية ومصداقية، فيه الشريف والوضيع فيه النفيس والخسيس، فيه العالي والواطي، فيه الرفيع والحقير فيه الشجاع والمنبطح الجبان، فيه العزيز والذليل فيه السامي والرقيع.!

قبل أن يطاردنا الندم!

لحظات كثيرة في حياتنا نغفل فيها عن ضمائرنا ونعطي الاحساس بقلوبنا إجازة من موازين تصرفاتنا وأفعالنا.. تسيطر علينا شهوتنا من الأنانية والأثرة والرغبة في النجاح والسيطرة وحب الظهور وجمع المال.. ولكي نلبي هذه الرغبات نفعل أو نرتكب حماقات نندم عليها بعد فوات الأوان وهو الوقت الذي يستيقظ فيه الضمير الذي أغراه العمر ورحيق الشباب عن حقيقة الحياة وماهية الدنيا..

كتب الصحفي الشهير موسى صبري مذكراته التي حكى فيها مشوار كفاحه ونجاحه الصحفي منذ أن كان يطرق أبواب الصحف يستجدي العمل من أصحابها إلى أن صار أبرع وأشهر صحفي عرفته مصر وفي نهاية المذكرات كان لابد له من وقفة مصارحة ومكاشفة معه نفسه بعد هذا المشوار الطويل فكتب في نهاية المذكرات هذا التساؤل الذي قال فيه:

(هل أنا الملاك الذي هبط إلى بلاط صاحبة الجلالة متجرداً من كل الأخطاء والخطايا مقدما دائما في سلوكه وسطوره كل ما هو جميل وظاهر ونقي؟! ألم تطارد صدري حراب الندم على تصرف خاطيء أو كلمة ظالمة أو اقتناع أناني أو تسخير للكلمة في غير هواها الشريف الشفيف؟ إنني أحاول أن أجلس على كرسي الاعتراف لكي أمارس المواجهة الصعبة.. حساب النفس)

وهذا دومًا حال الانسان بعد مسيرة العمر الطويل الحافلة بالأعمال والاحداث والمواقف حيث يبدأ في الاسترخاء والخمول والهدوء ويستعيد أمامه شريط الذكريات في خياله مرة أخرى بعد مرور السنين وربما العهود ومع هذا السكون والخمول الجسدي تبدأ ومضات الضمير والاحساس والألم النفسي تنبعث شيئاً فشيئاً وتتوهج وتشتعل كلما رمتها الذاكرة بموقف قاس لم يكن فيه صاحبه على المستوى اللائق بكلمة إنسان وكل ما كان يحدث في الحياة وتنتشي له النفس من ظلم وكبر وغطرسة وأنانية وبطش وإيذاء سيتحول كله إلى جمرات أليمة تقذف الضمير وتفتك بالقلب وتحرق صاحبها ليل نهار ..!

وموسى صبري يعكس لنا هذه الصورة حينما حكى لنا من ذكرياته موقفاً كان ساعة حدوثه في قمة السعادة والنشوة والشعور الغامر بالتفوق..كان الجميع يباركون له ويهنئونه ويصفقون لتميزه حتى نسي أن يوقظ ضميره ليخبره إن كان فعله خطأ أم صواب وظل الضمير نائما مخدرة موازينه حتى مضى الزمن وتشبعت النفس بكثير من طموحها وهنا استيقظ الضمير وانتفضت صحوته واستعاد المشاهد مرة أخرى حتى تبدل الحال وتغير الشعور فما كان منه سعيداً بالأمس ندم عليه أشد الندم وتمنى لو أنه لم يفعله أو ينجز منه شيئاً، وهو درس واضح لكل معتبر : احذر أن تفعل في حياتك ما يتألم منه ضميرك ..واحذر أن يقظة ضميرك الذي قد ينام بعض الوقت. !

ما يؤلمه الان

لعلني تألمت أول ما تألمت من عمل صحفي جلب لي التهنئة .. عندما طاردت سيدة بريطانية ، كانت قادمة من انجلترا ، خلال مرحلة العمل الفدائي في منطقة القنال ..وقد ارتكب

ولدها الشاب الجندي في القوات البريطانية جريمة استحق عليها الحكم بالإعدام .. لست أذكر الان نوع الجريمة ، ولكن كل ما أذكره أنني طاردت هذه السيدة في أحد فنادق مصر الجديدة ، ومعي مصور آخر لحظة ، لكي نصورها وأحصل منها على حديث ..وكانت هي في قمة آلامها، لا تريد أن تواجه الصحافة..لقد جاءت للقاء أخير مع ولدها ، قبل أن ينفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص..وحاولت السيدة التهرب من الصحافة وسط إجراءات أمنية مشددة ..ولكنني تحايلت على الاختفاء في ركن مستتر من سلم الفندق ..ولما اقتربت مني وكان الوقت ليلا ..ظهرت فجأة ومعي المصور ..وأطلقت الأم صرخة فزع وصرخت : ابتعدوا عني؟احترموا قلب الم ..ولكنني وفي نشوة الانفراد بالصورة الصحفية لم أبتعد ولم أحترم قلب الأم ..والتقطت الصور ..ثم هربنا من مطاردة الأمن ، وعدت إلى أخبار اليوم سعيدا بهذا النجاح ..وتلقيت التهنئة عندما انفردت آخر لحظة بصورة هذه الم وهي صارخة فزعة ولكنني وفي لحظة صفاء بعد ذلك أصابني ألم عظيم ..وماذا لو لم ننفرد بهذه الصورة التي عجزت عنها وكالات الانباء العالمية ؟ ماذا لو لم تنشر أصلا؟ إن الثمن هو ضربة إلى قلب أم جاءت من آخر الدنيا لتقول للابن.. وداعا.. بل لعلها تصورت أننا وحوش)

وهكذا قلب الانسان حينما تحكمه رغباته وحدها وتسيره شهواته بمفردها بعيد عن العقل والضمير والقيم يتحول ساعتها لوحش مفترس لا يعترف بألام الناس ولا يراعي همومهم ولا يحس بمصابهم ليجري ويعدو من أجل نفسه على حساب غيره.

التناقض سمة إنسانية

هناك من يقول ويحكي ويحكم بأن التناقض صفة منكرة في الإنسان، وما أرى من خلال ما قرأت ووعيت ودرست، إلا أن التناقض صفة أصيلة في كثير من البشر، فمن يقدم الحب يقدم الكره ومن يحب الغنى أحيانا يحب الفقر، ومن يرحم أحيانا يقسو، ومن يحب الظلم أحيانا يعدل، ومن تعلمه ذكيا تراه أحيانا غبيا، ومن تراه قويا تبصره أحيانا ضعيفا.

هكذا التناقض قدر له أن يلعب في حياة الإنسان دورا كبيرا، ومع شدة نكراننا له وتحاملنا على أصحابه، واتهامنا لهم أنهم غير أسوياء، إلا أننا لو تبصرنا أحوالنا كثيرا لوجدناها تمور في التناقض مورا، ورأينا أنفسنا تغرق في عالمه إلى الأذقان..

من الشخصيات المحيرة في التاريخ، والتي كانت تأخذها دوامة التناقض وتصدر منها مواقف متناقضة يُباين بعضها بعضا، كان عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) فعلى ما كان في الرجل من شدة وقوة وقسوة وحزم، كان فيه لين ورفق ورحمة.

إن الحكم آفة ملعونة تصير الإنسان وحشا غادرا وخطرا لا يؤمن جانبه، فتصدر منه أفعال تكون وبالا على الإنسانية لو كان لا يتقي الله تعالى، بل تجعل منه آية غريبة في التناقض الذي يأتي بفعل ثم لا يلبث إلا أن يأتي بما يناقضه ويخالفه.!

فر عبد الرحمن من بطش العباسيين الذي اقتلعوا جذور بني أمية من الوجود بلا رأفة ولا رحمة، رأى عبد الرحمن مصارع قومه وأخوته، فامتلأ قلبه بالهم والحزن والفزع، لما شاهد من وحشية الهاشميين المنتقمين الذي لم يسلم منهم الأحياء والأموات حينما نبشوا قبور الأمويين ومن وجدوا جثته منهم أخرجوها وصلبوها وجلدوها وهي جسد هامد بلا روح، وهو ما يعكس حالة الاحتقان الشديد والغل الفريد الذي أصاب العباسيين.

هل هذه القسوة كان لها تأثير كبير في شخصية الفتى المتجه للأندلس، والساعي إلى قيام دولة جديدة يكون هو قائدها وأميرها.. وعلى قدر هذه القسوة، كانت هناك رحمة وكان هناك عفو، وهو التناقض الكبير الذي كنا نجده في شخص عبد الرحمن الذي كان يبهر كل من اقترب منه بجميل صفاته، وجمال خلاله ورجاحة عقله وذكائه معرفته.

وصلت القسوة بعبد الرحمن.. أو أوصله الملك لقسوة لا نظير لها جعلته يغدر حتى بالمقربين إليه وأهله وذويه، مثله تماما مثلما فعل أبو جعفر المنصور في الشرق.. فقد قتل ابن عمه عبد السلام بن هشام، وقتل ابني أخيه أبان بن معاوية، ونفى أخاه خالدا، ومما ينسب إليه من القسوة والغدر أنه أغرى أهل طليطلة بأن يعقدوا معه صلحا وأن يبعثوا إليه برؤسائهم لتوقيع عقد الصلح، ولما وصلوا إليه صلبهم جميعا.

ووصفه بعض المؤرخين بقوله: "كان شديد البطش لا يرعى إلا ولا ذمة"

وهناك بعضهم من دافع عن عبد الرحمن في محاولة لتبرير أعماله من القسوة والقمع وهو المؤرخ المقري في قوله: " كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلا أخرى لتوطيد الحكم بين مشاغبي العرب والبربر، وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى بالشدة والعسف لأن كلا الفريقين لم يعتد الحكم المنظم "

وكان من سياسته أنه كان عند اللزوم يضرب بقسوة حتى يضمن السلامة، وقد رأيناه يصلب والي طليطلة هشام الفهري حتى لا يقدم غيره على ما أقدم عليه.

اتفق أبو جعفر المنصور سراً مع أمير عربي من الأندلس اسمه «العلاء بن مغيث الجُذامي»، ووعده بإمارة الأندلس، إن هو انتصر على خصمه، وبعث له بلواء الدولة العباسية وبسجل تعيينه على الأندلس، وكانت النتيجة أن «عبد الرحمن الداخل»، قتل «العلاء»، أمير العباسيين، وشتت شمل أنصاره، ثم حشى رأسه بالملح والكافور وأرسله إلى «المنصور» وذلك سنة ١٤٧هـ، وكان حينذاك في الحج، فلما رآه صاح قائلا: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحرا»

ونحن أمام هذا القائد الباطش الموتور الذي يأخذ بالظنة ويغلب السيف على قراراته بلا رحمة ولا رأفة، نتعجب حينما نجده ذلك الرحيم الشفيق العفو الرحيم.!

كانت في عبد الرحمن جوانب إنسانية عديدة تدل على أن قلبه فيه رقة ورحمة ورأفه، ومما يذكر له هذا الموقف الطريف أنه مرة أسر واحدا من الذين ثاروا عليه، وأركبه بغلا وهو مقيد بالسلاسل، ولحق البغل وراكبه بعبد الرحمن وهو يمتطي حصانا فارها، فالتفت عبد الرحمن إلى الأسير وقال له:

يابغل ماذا تحمل من النفاق والشقاق؟

فقال الأسير:

يا فرس عبد الرحمن، ماذا تحمل من العفو والرحمة؟

فاهتز عبد الرحمن لذلك وعفا عنه.

المجاهد الغادر

كان (المنصور بن أبي عامر) شابا طموحا رحل إلى قرطبة والتحق بجامعتها، ولما انتهى من دراسته فتح دكانا بجوار قصر الخلافة، وكان يكتب فيه للناس شكاواهم وعقودهم، واتصل به في هذا الدكان بعض خدم القصر، والذي اتصل عن طريقهم إلى السيدة الأولى والمرأة القوية زوجة الخليفة الحكم وأم الخليفة الصغير (صبح البشكنسية) التي أعجبت بمهاراته وأوكلت إليه القيام ببعض أمورها، فأظهر حذقا ومهارة فيما وكل إليه، فأوصت الخليفة به فولاه قضاء بعض النواحي، وبدأ نجمه يسطع في الظهور حتى وصل إلى كرسي الوزارة، الذي أظهر فيه كفاءة لا نظير لها.!

كانت (صبح) جارية أندلسية جميلة واسمها (إيرورا)، وكان ابن أبي عامر شابًا وسيما ذكيًا، ويقال إنها وقعت في حبه، واغتنم هو هذا فأظهر لها حبه وغمرها بالهدايا ومعسول الكلام، وصار وكيل أعمالها هي وولديها، ولما مات الخليفة كانت صبح هي الوصية على ولدها، وتعتمد في كل شيء على ابن أبي عامر، أي أنه صار كل شيء في الدولة، والقائم بمقام الخليفة.!

ومن هذا المنصب بدأ المنصور يحيك مؤامرات عديدة، وتدبيرات شيطانية ومكيدة، حتى يثبت أقدامه ويرضي طموحه، الذي يجنح إلى أكثر من الوزارة، فحينما مات الخليفة الحكم اتجه المناخ العام للبيعة لأخيه المغيرة أو عمه، ولكن ابن أبي عامر خنق المغيرة بتحريض السيدة صبح حتى خلا الجو لابنها هشام وتم إعلان البيعة له وهو ابن عشر سنوات.

ثم تآمر على الحاجب (جعفر المصحفي) و(غالب بن عبد الرحمن) قائد الجيش فأوقع بينهما حين تزوج بنت غالب، واتهم المصحفي بالسرقة والخيانة وحكم عليه بالسجن وظل فيه حتى مات، وتولى منصبه بعد سجنه.. كما دبر المكيدة ضد صهره حتى قتله، وقدم البربر ووثق فيهم، وأبعد العرب ونحاهم، ثم كان هذا التصرف الذي وصفه الدكتور شلبي في موسوعته التاريخية بأنه التصرف المدمر، والذي قام به ابن أبي عامر حتى تخلو له ساحة

الحكم وهو القضاء على زعامات الأمويين الموجودين بالأندلس، إما بقتلهم أو إبعادهم إلى الشمال الأفريقي، واتخذ لذلك حجة هي تأمين الخليفة من أولئك المتطلعين للسلطة، الذين اتهمهم بمؤامرات لم يقوموا بها، وكان من نتيجة هذا العمل الظالم، أنه بعد خلع هشام بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٩٩هـ، لم يكن في الساحة من يملأ الفراغ من الأمويين، وانتهت دولتهم وضاعت خلافتهم، وظهر بعدها عصر ملوك الطوائف الذي كان عصر الخيانة والضعف والضياع.

وكل هذا بسبب امرأة واحدة فتحت الميدان لهذا الطماع النهم المسعور، ليقتل ويتآمر وينكل ويظلم ليرضي أطماحه وشهواته وتشبثه بالملك.

ورغم هذه السيرة السيئة من التآمر والغدر إلا أن صفحة أخرى أو سيرة أخرى تحكي غير ذلك أو تنقل صورة بسلوك آخر فقد كان في حكمه بارعا سديدا وبطلا في قتال النصارى حين خاض ضدهم ٥٤ معركة لم يهزم فيها ابدا، ووصل بعساكره إلى مناطق وحدود لم يصلها غيره في أوروبا حتى أنه وصل إلى ليون في فرنسا.. قال المؤرخ الأندلسي ابن عذاري، في كتابه «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»: «غزا محمد بن أبي عامر في حياته أربعًا وخمسين غزوة، لم يُهزم أبدًا في واحدة منها».

ويقول «السرجاني»: «تعرضت الخلافة الجديدة في الأندلس لحادث خطير؛ إذ ما أن علم نصارى الشمال بوفاة الحكم المستنصر، وجدوا الفرصة سانحة لنقض كلَّ ما كان بينهم وبينه، من عهود ومواثيق، وشرعوا يُهاجمون الثغور الإسلامية هجمات عنيفة، بغرض الثأر من المسلمين وإضعافهم، فلا يجدون فرصة لاستجماع قواهم من جديد، ولا يجد حاكمهم الجديد أيضًا الفرصة لتوطيد مُلكه؛ فيستطيع من بعدُ أن يُوَجِّه لهم الضربات العنيفة، التي اعتادوها في عهد الحكام الأقوياء؛ ومن هنا فقد اشتدَّت هجمات نصارى الشمال، على الثغور الإسلامية، بل وتخطّوها حتى كادت حملاتهم تصل إلى قُرْطُبَة، عاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس».

وتابع: «كان ضعف الخليفة الصغير، انسحب على رجال الدولة جميعًا، فلم يُقدم أحد على كفاح النصارى وردِّهم، ولا يجدون أحدًا يتقدَّم لهم، كما أن حاجب الخلافة جعفر المصحفي، كان ضعيفا مترددا خائر الرأي، ليس له عزيمة، ولا يدري ماذا يفعل، وهو يجبن عن الخروج لملاقاة العدوِّ، بل بلغ به الأمر بالرغم من قوة الجيش الذي تركه الحكم المستنصر، ووفرة المال والسلاح والعتاد أن أمر أهل قلعة رباح بقطع سدِّ نهرهم، ظنًّا منه أن هذا قد يُنجيهم من ضربات النصارى المتلاحقة، إلا أن ابن أبي عامر استعد لصد هجمات النصارى، والذود عن الخلافة الإسلامية في الأندلس»

وروى «ابن عذاري» عن نجدته للمسلمين أنه بلغه وجود أسيرات مسلمات لدى جارسيا سانشيز الثاني ملك نافارا رغم أنه كانت بينهما معاهدة تنص على ألا يستبقي جارسيا لدية أسرى من المسلمين، فأقسم أن يجتاح أرضه لنكثه بالعهد، ولما خرج المنصور بجيشه، وبلغ غارسيا خروجه.

وأسرعت رسل جارسيا تستفسر عن سبب الغزو، فأعلموهم بخبر الأسيرات المسلمات، فردّهن «جارسيا» معتذرًا بعدم علمه بهن، وبأنه هدم الكنيسة التي كانت تحتجزهن كاعتذار منه على ذلك، فقبل منه المنصور ذلك وعاد بالأسيرات.

ويقول الدكتور محمد عبد الله عنان، في كتابه «دولة الإسلام في الأندلس»: «كان مقتديًا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ، فكان من عادته الحاجب المنصور في جهاده وبعد كل معركة أن ينفض ثوبه، ويأخذ ما يخرج منه من غبار ويضعه في قارورة، ثم أمر في نهاية حياته أن تُدفن معه هذه القارورة؛ وذلك حتى تشهد له يوم القيامة بجهاده ضد النصارى».

ويقول «ابن الاثير»: «كان المنصور بن أبي عامر عالماً، محباً للعلماء، يكثر مجالستهم ويناظرهم، وأكثر العلماء ذكر مناقبه، وصنفوا لها تصانيف كثيرة، وكان حسن الاعتقاد والسيرة، عادلاً، وكانت أيامه أعياداً لنضارتها، وأمن الناس فيها».

ويبقى الحق فمهما كان بطلا مغوارا فاتحا منتصرا فإن التاريخ يعرفه كما ذكرنا بوجه آخر وهو الخائن الغادر القاتل المتآمر.!

شهيد النساء

من أكثر المفاهيم والحقائق التي ظلمت في هذه الحياة وتحملت كثيرًا من المزايدات التي ليست منها في شيء.. مفهوم الشهادة ولفظ الشهيد.! الذي صار أسهل الألقاب وأيسر المنح التي نمنحها لكل من يحلو لنا من الراحلين والعزيزين علينا مهما كانت صورهم وأشكالهم، حتى لو كانوا من الفجرة الأشقياء الذين يناصبون دين الله العداء.. لقد صار اللفظ هكذا يطلق على الكثيرين بلا ضوابط، ودون قيود تُقنِنه وتجيزه.! فكلما أحب شخص ما أن يرثي صديقه أو حبيبه أو قريبًا منه.. منحه لقب الشهيد، ولا يجد له رثاء أفضل من كلمة شهيد، وأعلى رتبة من الشهادة.. وصرنا كالإخوة النصارى الذين يمنح قسسهم صكوك الغفران ورخص الجنة والنار، لمن يشاؤون ويرغبون.!

لا ننكر أن هناك أنواعًا من الشهادات، نصت عليها النصوص النبوية، وأوضحتها الأحاديث الصحيحة كالغريق والمحروق والمبطون والميت تحت هدم، كما في الحديث (الشهداء خمسة المطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم وفي سبيل الله).. وهي صور وأشكال للهول المرير الذي يذوقه الإنسان ويتحمل آلامها العنيفة.. التي لا يكافئه الله عليها إلا بالغفران ونيل أجر الشهداء الذين ضربت رقابهم أو بُقرت بطونهم بالسيوف من أجل الله ورسوله ودينه.

لكن ما يثير العجب هو نوع آخر زعموا أن صاحبه من جملة الشهداء!

ورووا هذا الحديث: (من عشق فعف وكتم فمات مات شهيدًا)

أي من أحب امرأة وعشقها ولم ينل مراده منها، فعف وكتم هواه حتى مات بسببه.!

والحديث يختلف حوله المحدثون والعلماء، فهناك من يثبت صحته وهناك من يقول ببطلانه، وأشهرهم الامام بن القيم.. بل ذهب بعض أهل العلم إلى أنه حديث موضوع وفي سنده ضعف، كما بين ذلك الشيخ الألباني وغيره.. ولكن بعيدًا عن هذا وذاك نطرح أسئلة:

كيف ينال مثل هذه الرتبة العالية من عشق امرأة وكانت همته في الحضيض يبيت ويصحو هائمًا بها.. بمن قتل في سبيل الله وكانت همته في الثريا؟

أتتساوى الغايتان ويتساوى الرجلان؟!

بل كما قيل: كيف يكون العشق الذي هو شرك في المحبة، وفراغ عن الله تعالى، وتمليك القلب والحب والروح لغيره تنال به درجة الشهادة؟ إن هذا من المحال فإن العشق من أكثر ما يُفسد قلب المرء وهو خمر الروح، الذي يصدها عن ذكر الله وحبه ومناجاته والأنس به ويوجب عبودية القلب لغيره تعالى، وقد قيل: لو كان إسناد هذا الحديث كالشمس لكان غلطا ووهمًا، فلا يحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظ العشق في حديث ألبته.

كما حاول البعض أن يجد طريقًا وسطًا بأن الحديث ضعيف، لكن معناه سليمًا.. لأن المجاهد لنفسه والكاتم لعشقه والمتعفف في أمره، يؤجر وينال الجنة.. لكن هذا أمر آخر بعيد عما نتحدث عنه من صك الشهادة، الذي هو أرقى وأعظم أوسمة الإسلام.!

إن هذا الحديث لو سلمنا بصحته، يفتح الباب لحب النساء والولع بالفتيات.. ويشجع على الغواية والرذيلة..

بل يجعل طريق العشق والهوى طريقًا مرغوبًا فيه، من طرق القربى إلى الله، يحث عليه الدين، ويمنح ضحاياه رتبة الشهداء، وربما إذا نهيت شابًا عن حب فتاة لرد: بأن هذا طريق الشهداء وسبيل المجاهدين.!

أيها المصريون كفاكم وهمًا.!

لعلي أطرح هنا أمرًا صادمًا وفكرة لا تتقبلها عقول الكثيرين من مواطنينا المصريين، الذين يعيشون أو يحبون أن يعيشوا في ظلال الأوهام، ويصبحون ويمسون في أكواخ الخرافة، ويؤمنون إيمانًا جازما أن ما تضمه عقولهم من خزعبلات، إنما هي حقيقة ويقين.!

ولو أن أحدهم سمح لنفسه ببعض التفكير، وقليل من التأمل، لأدرك خطأه ولربما صار يضحك على نفسه ساخرا منها مما كان فيه من وهم وتصور!

فما الموضوع وما الشبهة وما القصة.. بل وما الخرافة؟!

إن مما يؤمن به المصريون ويشاع في مجتمعاتهم، ويرددونه دومًا في كل أوقاتهم وأغلب عصورهم وعقودهم، بل في حلهم وترحالهم وذهابهم وإيابهم، في حلوهم ومرهم، سعادتهم وضنكهم، جملتان يحار أمامهما العقل اليقظ الحصيف الواعي المتأمل، حيث يقولون دومًا: إم مصر محفوظة ويسمونها أحيانًا (مصر المحروسة)، حتى عاصمتها حين سموها بالقاهرة، وعللوا التسمية بأنها تقهر كل من يعتدي عليها، ومنذ يومين كنت أقرأ في وفيات الأعيان لابن خلكان فلمحت عبارة (القاهرة المحروسة).!

والحقيقة أنني أود هنا أن أضع ألف تعجب وتعجب، لو كانت قواعد اللغة تسمح بذلك.!

وأمام هذا اليقين العنيف في نفوس المصريين، تثيرك الدهشة لو حدثت أحدهم عن وضع البلد وحالتها المتردية، والشرور التي تُحيط بها من كل جانب، والمؤامرات التي مزقت لحمتها، وسُحب الفقر التي تظلل سماءها، ليرد عليك بقوله: حفظ الله مصر.!

وإذا عرضت على أحدهم صورًا مشاهدة من الواقع المؤلم والتردي الرهيب الذي توغلت فيه مصر وانحدرت إلى هوته السحيقة، يقول لك: إن مصر محروسة.!

وإذا نوهت بالفساد الذي تفشى في كل مكان، والسياسات المنحرفة التي دمرت بنية البلد، والفساد الذي صار سوسه ينخر في كل مكان من ربوعها يقول لك: ربنا حافظ مصر.!

ولا أعلم من أين أتوا بهذه الكلمة، وقرروا هذه الفرضيات واليقينيات التي لم ينزلها الله في كتابه، أو تُنظرها شريعته، أو حتى يؤيدها الواقع الحياتي قديما وحديثا، إن مشكلات الحياة تحيط بنا، والأطماع التي تواجهها بلادنا، والفشل الذي نمنى به في كل وقت وكل عهد، يحتم علينا أن نفيق من أسر هذه الأوهام والخزعبلات، وأن نتعامل مع الحاضر بشيء من الواقعية والعمل والجد والاجتهاد، لنهتدي إلى حياة كريمة، ونسير في طريق يُعلي مصلحة الوطن المسكين، ويُسعد شعبنا التعيس.!

أيها المخدوعون الواهمون.. من أين لكم هذا اليقين؟

ومن أعطى وطنكم هذه الحصانة؟!

وكيف ترون لأنفسكم وبلادكم ما لا يراه أحد من العالمين لنفسه؟!

وكأني بكم في هذه الدعاوى تنطلقون من مبدأ بني إسرائيل حينما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وادعوا زيفًا أنهم شعب الله المختار.!

عجبًا لكم يا قوم، تكون مصر في أسوأ حالاتها، ثم تقولون حفظ الله مصر.. مصر المحروسة.. والحق أن مصر هي الضائعة وهي المنهوبة والمنهوكة، ولا أعلم من أين أتيتم بهذا اليقين الغريب، والذي لم يقره الله أو يشير إليه، اذهب أيها المصري وافتح كتب التاريخ حتى تعرف هراء ما تنطق به، وفساد ما تدعيه وتُمني نفسك به.. اذهب إلى بطون هذه الكتب، لتجد بلدك، مصر أكبر بلد في التاريخ تعرضت للاحتلال والقهر والظلم والاستعمار والنهب والسرقة والهزائم والبلايا والمحن، سنين طويلة، فهل تُصر مع ما تقرأ من التاريخ أن تقول: حفظ الله مصر؟!

حتى في العصر الحديث كانت مصر أكثر بلدان الدنيا تعرضًا للاحتلال والاستعمار، هاهم الإنجليز يجسمون على صدرها (٧٠) عامًا ومن قبلهم فرنسا والمماليك، الذين ساموا البلاد سوء العذاب وفرضوا على الناس سياسات القمع والإرهاب، راجع تاريخ (الجبرتي) الذي يُعد أصدق المراجع التي أرخت لحقبة مهمة من تاريخ مصر، لترى حجم الهوان الذي

عاشته، وصنوف المجاعات والانتهاكات والبلايا التي نزلت بأهلها، لتعلم أنك تهزي وتخرف حينما تقول جازما: حفظ الله مصر.!

وهنا لا شك أن أحدهم سيتحمس ليدافع عن هذه الجملة العاطفية الرنانة (حفظ الله مصر) فيقول: نعم مصر محفوظة، وستظل محفوظة وقائمة وموجودة، مهما مر عليها من المحن والنوازل، ومهما قابلت من العواصف والبلايا، فهي موجودة ومحفوظة، وأنا أقول لك: ربما يكون قولك صحيحًا، ولكن قلي بالله عليك: أي وطن في الدنيا نزلت به البلايا والمحن، وقابلته العواصف والنوازل فمات وتبخر واندثر وانمحى وأبيد؟!

إن كل بلد في الدنيا تعرض للمحن، مازال موجودًا وقائما، تمامًا كما مصر موجودة وقائمة، ولكن الفرق أنك توهمت أن هذا الوجود هو حفظ من الله اختص به مصر، بينما كل بلاد الدنيا نالت هذا الامتياز وتتمتع بهذا الحفظ.!

بل لعل هذه البلدان بحاضرها وتاريخها، أفضل حالا من مصر فيما آلت إليه واستقرت عليه، فأي حفظ هذا بالله عليك؟!

كان الأولى بهم أن يقولوا: حفظ الله هولندا أو انجلترا المحروسة.!

أي حفظ هذا يا رجل، والشعب يموت من الفقر والجوع؟

أي حفظ هذا يا رجل، والناس لا يجدون ما يطعمون؟

أي حفظ هذا يا رجل، والشباب ضائع لا يجد مهنة تغنيه؟

أي حفظ هذا يا رجل، والمريض العاني لا يجد ما يعالج به نفسه ويشفي ألمه؟

أي حفظ هذا يا رجل، ورب البيت لا يعرف اليوم في مصر كيف يطعم أولاده؟

أبعد كل هذا تقول لي: حفظ الله مصر؟!

ألا حفظنا الله جميعًا من بلاء الأوهام وشرور الأهواء.!

ثم قلي بالله عليك: إذا كان الله قد حفظ مصر، ونحن في هذا الضنك وهذا التعكير وهذا التردي وهذا الانحدار وهذه الآلام وهذه الجراح وهذا الفقر وهذا الجوع وهذا الضياع وهذا المرض، فماذا تقول الدول الناهضة عن نفسها؟

ماذا تقول امريكا وانجلترا وفرنسا وكندا وكل الدول الأوروبية التي تعيش أجمل وأروع وأزهى ما عرف الإنسان من حضارة ونعيم وحياة.!

حقيقة لا أدري ماذا أقول، إلا شيئًا واحدًا فقط أُدركه وأعرفه، وهو أن مثل هذه الدعاوى إنما هي في حقيقتها نوع من التمييع لتبرير التكاسل والضعف والخذي، والهروب من مواجهة الاخطار التي تحيق بمصر، نوع من التنويم والاستكانة والخوف والجبن عن مواجهة أي خطأ وانحراف في السياسات، التي توجه البلاد لمستنقع آسن لا تخرج منه أبدًا، هذه هي الحقيقة الواضحة والمعلومة التي تتخفى وراء الشعار الرنان.. حفظ الله مصر.

أعرف أنك ستسوق الآيات والأحاديث التي جاء فيها ذكر مصر، وسوف تتلو منها ما تيسر من قول الحق تعالى: (ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين)! وأعرف أنك ستقول لي وأنت مشموخ منتفخ متعال: إن الله تعالى ذكر مصر في القرآن أكثر من (٣٠) مرة، وأن العلماء ألفوا في فضل مصر الكثير والكثير من الكتب، وأقول لك: أعرف كل ذلك، وبحكم دراستي واطلاعي أقول لك: لا شيء من هذا كله يدل على ما تدعيه من الحفظ المبين.. فالعبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.. والحذر الحذر من الافتراء على الله وكتابه ونبيه، فهناك فرق كبير بين تفضيل الله لمصر، وبين حفظ الله لها.. فتبين أخي ولا تتجاوز في أمانيك وتشطح في أوهامك وترهاتك.

ثم يقول قائلها إن جندها خير أجناد الأرض، بهذا أخبر صلى الله عليه وسلم، وحينما رجعنا نستوثق من الحديث وجدناه من المكذوبات على نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وأنه لا أصل له.! فما هذا التحريف ومنح النفس بما ليس فيها؟!

إنني أعلم بقين الدين والقرآن.. أن البلد الوحيد الذي كفل الله له حفظه وحمايته هما مكة المكرمة والمدينة المنورة وذلك ببركة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أما ما يقوله المصريون، فما هو إلا عاطفة جوفاء، وعصبية هاوية، وتحيز مقيت، لا سناد له من الشرع والعقل والواقع، ومن يتفوه به ويصدق جملته إنما هو أسير أوهام وأفكار غير ناضجة، يوحي بها

عقل ضعيف قاصر مريض، فأفيقوا رحمكم الله، فلن يحفظ الله بلدًا شعبها ضعيف خائف مستكين يرضى الهوان ويهوى الذل ويصفق للباطل وينحني للظالم.!

ثم كانت الفضيحة الكبرى التي وصف بها المقريزي أهل مصر وهو المؤرخ الكبير الذي دخل بلادها، وعاين أهلها، ودرس وتأمل طبيعتهم ثم قال في "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار":

"أهل مصر يغلب عليهم الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس بالجملة، كما يغلب عليهم الشر والدنية التي تكون من دناءة النفس والطبع.. ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور والدنية لم تسكنها الأُسد، حتى كلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من الأمصار، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الأخرى، ما خلا ما كان منها في طبعه ملايمة لهذا الحال كالحمار والأرنب"

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"وَمَا يُخَافُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ إلَّا مِنْ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ "[1]

وقال المؤرخ الجبرتي في تاريخه «عجائب الآثار»:

"ولكن (الإقليم المصري) ليس له بخت ولا سعد، وأهله تراهم مختلفين في الأجناس، متنافري القلوب، مُنحرفي الطباع"

لقد حيرتنا مصر وأرض مصر ففي جوفها نامت أجساد الصفوة من اهل البيت الكرام وزمرة من علماء الإسلام الشامخين العظام، كما ضمت كذلك أجساد الطغاة والفراعين، ولكن لماذا نصر دوما على إبراز المحاسن والتغاضي عن المساويء التي لو تذكرناها لألزمتنا الموضوعية، والحكم بوعي وإنصاف بعيدا عن الهوى والشطط.

كثير ما انتصرت وظفرت، وكثيرا ما انهزمت وانخذلت.

[1] - مجموع الفتاوى

شأنها شأن كثير من الأمم والشعوب والأوطان، لا شيء جديد، ولا صورة ثابتة، ولا حكم دائم.

أختلف معك.. لكنك عظيم!

نحن مشهورون كأكثر الأمم إجادة وبراعة في هدم زعمائها وتمزيق قادتها وعظمائها، بل إننا نتفنن في تحطيم كل موهبة وذبح كل عبقرية، بحجج ومبررات يدفعها الحقد تارة والاختلاف الفكري تارة أخرى.

الأيديولوجيات كثيرة متباينة.

والمذاهب متعددة مختلفة.

والآراء متشعبة لا تتوحد على طريق، فهل يسوقنا الاختلاف وافتراق المذاهب لتحطيم مواهبنا وإنكار إبداعاتنا؟

ماذا أفعل ونحن لدينا كثير من العظماء والعلماء والأدباء والعباقرة الذين لا نرضى عنهم، ولا تعجبنا سلوكياتهم ولا يروق لنا انتماءاتهم الفكرية؟! وهل لهذا التباين بيننا وبينهم، واختلافنا معهم في التوجه والفهم والموقف، ما يتيح ويبيح لنا أن ننهش لحومهم ونمزق سمعتهم، ونهيل التراب على كل قدموه للدنيا من عبقرية وإبداع؟!

إن بعضنا يتعجب ويستنكر أن يتم الحديث عن أحد هؤلاء، ويعتبر مجرد ذكر اسمه أو الاستشهاد به في مقال أو كتاب أو أمسية أو محاضرة، جريمة كبيرة، ومنكر يجب الاستغفار منه، ونسي أن هناك فرق كبير بين أن أردد المحظور الذي نطق به، وبين إقراري لما أتى به من محاسن الأشياء وفضائل الأعمال والمواقف النبيلة، وهي نظرة منصفة يُرحب بها ديننا ويقرها كفضيلة، فليس معنى أنك تختلف معي أن أفني ذكرك وأمحوك من الوجود.! لقد ذكر الله تعالى فرعون في القرآن وهو الطاغية الذي ادعى الألوهية، بل ذكر من هو أبشع منه إبليس اللعين.. فهل معنى ذكرهما في القرآن أن الله يقر كفرهما وكبرهماأو يقبل به ويرتضيه؟!

ألا.. إن الله لا يرضى لعباده الكفر.!

إننا في هذه الحياة لكي نكون راشدون حكماء عقلاء منصفون، يجب أن ننظر بمناظير متعددة ونعتد ببينيات الأشياء، وأن ندرك أن هناك طرقا متنوعة وأحكاما متباينة في الحكم على الأشخاص، فإذا وجد من نبغضه ونعاديه ولا نتوافق مع أفكاره وآرائه، وهو في نفس الوقت في اتجاه آخر لا يتصادم معنا، يبدع ويبتكر ويتألق.. فماذا يمنعني أن أشهد بتفوقه وأقر نبوغه رغم كونه يخالفني.؟! وما علاقة خلافه معي بما قدم للإنسانية من إبداع ونفع؟! إنني متمسك بالحكمة القائلة: (لا تمنعك مساويء رجل من ذكر محاسنه) بل شديد الايمان بها والسير في منهاجها.. ففي أكثر مقالاتي وكتبي أستشهد بالإنسانيات التي قدمها كثير من النابهين والعباقرة والأدباء، والتي تخدم الانسانية وتؤهل سلوك الانسان، رغم كونهم يختلفون معي فكرياً وربما عقدياً.! ثم أرى من جهة أخرى من يستنكرون ذلك ويقولون لي ساخرين متعجبين: أتستشهد بتوفيق الحكيم وطه حسين وسلامة موسى ولويس عوض وهم يختلفون معك فكرياً؟!

وما العيب في ذلك يا قوم وما الضرر الذي أقدمه للعقول حينما أسرد خلقاً محموداً أو موقفا! سامياً أو رأياً رشيداً أو حكمة هادية نطق بها واحد من هؤلاء؟! وهل معنى ذلك أنني صرت مثله وانتحلت ملته وقلت بمنكره؟؟ من قال هذا ومن تصور ذلك؟ إن هي إلا أوهام قاصرة ونظرة خاطئة وبعيدة عن الحكمة ولا تمت للصواب بصلة،

ولا أنسى أبداً صديقاً لي أهديته بعض كتبي، وبعد أيام قال لي متهكما: أتكتب عن توفيق الحكيم يا حاتم؟ وقال لجليس ثالث: انه يذكر توفيق الحكيم! فقال الثالث لا حول ولا قوة الا بالله!! وقال لي آخر: إنك تستشهد بكثير من مفكري الغرب من النصارى والملحدين وتذكر أسماءهم، فقلت له: نعم وما المشكلة أن نذكر أسماءهم وقد قدموا لنا حكمة وعبرة وخبرة تستحق أن التفكر والتأمل؟!

أما الموقف المدهش المضحك، فكان من شاب صغير أعتز به وأعجب بتعقيباته قرأ منشوراً لي تحت عنوان: (إنسانية السادات وخسة يوسف إدريس) وقال لي: كيف تذكر السادات وأنت تختلف معه؟ هل تفعل ذلك حتى لا يجعلونك تحت تصنيف معين؟! فلم أملك إلا

الضحك والتعجب.! ولا أعرف كيف يجهل كل المنكرون المعترضون المتعجبون حديث الرسول الكريم (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها)، وقد كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تطبيقا لهذا القول حينما كان يعجبه بعض أخلاق الجاهلية وأشعارها وفضائلها، وكان يقبل من الأقوال ما يوافقه، ويرد ما يرفضه ولا يرضى به، وهو في نفس الوقت لا يعير صاحبه أو يؤنبه أويقصيه ويمحيه كما يفعل البعض.. وعندما سمع بيت لبيد: (ألا كل شيء ماخلا الله باطل) قال: صدق، ولما سمع: وكل نعيم لامحالة زائل قال: كذب، إلا نعيم الجنة لايزول.!

كما أنه صلى الله عليه وسلم جاء حرباً على الجاهلية وأوزارها، لكنه رغم هذا لم ينكر ما كان فيها من بعض الأخلاق، كمدحه لحلف الفضول الذي قال فيه:(لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أحبّ أن لي به حمر النعم) وقال: ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت) وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتناشدون الأشعار في المسجد، وأشياء من أمور الجاهلية فيضحكون ويتبسم..

فما الحرام والعيب إذاً إن ردّدنا قولاً يناصر الفضيلة، ويعلي ناصية القيم، رغم اختلافنا مع صاحبه فكرياً أو عقديا؟! وما المانع أن نأخذ منه ما يصلح حالنا ويدعم مسيرتنا ويوجه سلوكياتنا أخلاقياتنا.. أعتقد أن هذا المحظور لا يصدر إلا عن أفهام ضيقة معوجة محرومة من الفهم الصحيح والوعي الرشيد.. ولأننا لم نتعود على هذه الثقافة، فإن عقولنا تكون في حيرة شديدة إذا ما حاولت تغيير هذه القناعات العقلية.. فمنذ أيام وُضعت في نفس المأزق والاختبار الذي أُمني به نفسي حينما علمت بأن ابن سينا والجاحظ، اللذان نعدهما من عباقرة الأمة التي تتباهى بهما عبر تاريخها المديد.. ملعونين مذمومين في فكر أهل السنة والجماعة.

لقد كان حقاً كشفا غريباً وجدت فيه دهشة مفرطة، حينما علمت أن ابن سينا كان من القرامطة الباطنية، والجاحظ من المعتزلة المنحرفة، وكانت لدى الأول أفكار فلسفية إلحادية، وكفره عليها وبها شيوخ الاسلام الكبار وأئمته العدول المعتبرين.! فقد قال ابن القيم في

إغاثة اللهفان: (وكان ابن سينا كما أخبر عن نفسه، قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم، فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ولا رب ولا خالق، ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى..وهم زنادقة يتسترون بالرفض، ويبطنون الإلحاد المحض، وينتسبون إلى أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو وأهل بيته براء منهم نسبا ودينا، وكانوا يقتلون أهل العلم والإيمان، ويدعون أهل الإلحاد والشرك والكفران، لا يحرمون حراماً، ولا يحلون حلالاً، وفي زمنهم ولخواصهم وضعت رسائل إخوان الصفا.)

وصرح ابن تيمية بتكفيره في عدد من كتبه، ونقل ابن كثير في البداية، وابن الأثير في الكامل، وابن العماد في شذرات الذهب تكفيره عن عدد من العلماء، و ترجم له الذهبي في السير فقال: وله كتاب الشفاء وغيره وأشياء لاتحتمل، وقد كفره الغزالي في كتاب (المنقذ من الضلال) وقال ابن الصلاح في فتاويه (كان شيطاناً من شياطين الإنس) وقال الكشميري في فيض الباري: (ابن سينا الملحد الزنديق القرمطي غدا مدى شرك الردى وشريطة الشيطان)

أما الجاحظ وهو من أساطين المعتزلة، فكنت في صدمة عنيفة من أمره، حينما تحدث عنه البغدادي الاسفرائيي في كتابه النفيس (الفرق بين الفرق) وقال عن أتباعه: (اغتروا بحسن بيانه في كتبه ولو عرفوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم إياه إنساناً فضلا عن أن ينسبوه إليه إحسانا) ثم أخذ يعدد كثيراً من أباطيله التي لا تقبلها شريعة الإسلام ثم تعرض لكتبه طاعناً في بعضها متهما إياه بالسرقة في بعضها الاخر فقال (وأما كتبه المزخرفة فأصناف : منها كتاب في حيل اللصوص وقد علم بها الفسقة .. وجوه السرقة ...!!ومنها كتابه في عشر الصناعات وقد أفسد به على التجار سلعهم ومنها كتابه في النواميس وهو ذريعة للمحتالين يجتلبون بها ودائع الناس وأموالهم بها .

ومنها كتابه في الفتيا وهو مشحون بطعن أساتذة النظام على أعلام الصحابة، ومنها كتاب الكلاب و... و .! لا أذكر بقية الكتاب حتى لا تتنجسوا بعذرة الكلمات.! ومعاني هذه الكتب لائقة به وبصفته وأسرته.. ومنها كتاب طبائع الحيوان وقد سلخ فيه معاني كتاب الحيوان لأرسطاطاليس وضم إليه ما ذكره المدائن من حكم العرب وأشعارها في منافع

الحيوان، ثم أنه شحن الكتاب مناظرة بين الكلب والديك، والاشتغال بمثل هذه المناظرة يضيع الوقت بالغث، ومن افتخر بالجاحظ سلمنا إليه قول أهل السنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه:

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ** ما كان إلا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بنفسه ** وهو القذى في كل طرف لاحظ

ولكن.. ومع كل ما علمت عن الرجلين اللذين هما كما أشرت فخر الأمة والحضارة العربية، فالجاحظ.. جبار الثقافة العربية، وابن سينا.. عبقري الطب الذي تدرس كتبه في الغرب.. فإنني لا أمانع أن أباهي بهما كعبقريين خرجتهما أمتنا.. وأقبل منهما ما فيه نفعي وما برعا فيه من العلم والأدب وأستهد بحكمتهما فيما أردت أن أحدث أو أكتب أو اخطب أو أعلم، وفي نفس الوقت لا أرى نفس المانع من لعنهما والسخط عليهما فيما ذهبا إليه من شطحات تخالف ديني وعقيدتي وهويتي..

فهل يقبل المعترضون ذلك ويتفهمون هذا الصواب الذي يظنونه تناقضاً وخللا؟!

أو يرون أبعد من ذلك فيكذبون ما ظنوه من أن صاحبه لا مباديء له ولا يثبت على حال.؟!

نعم سيدي العبقري، أقولها لك بكل وضوح: أختلف معك لكنك عظيم.

أنكر زورك وأقر إبداعك..

أقبل أدبك وأرفض شطحاتك..

وليس في هذا عجب أو غرابة فالعجب كل العجب من يستنكرونه ويرفضونه.!

المحتويات

إهـــــداء ٢

مقدمة ٣

المستقبل بيد الله ٥

لعله خير! ٨

حتى يعرفني الناس ١١

بين المناصب والمواهب ١٥

الرجل الذي جامع أمه! ١٨

عبقريات بلا جامعات! ٢٢

الهلافيت ٢٦

احنا دفنينوا سوا! ٢٩

إنسانية اللصوص! ٣٣

من يطيق الشهامة؟ ٣٧

الخوف ليس عيبًا ٤٠

متفوقون يسقطون ٤٥

لست أبو العريف! ٤٧

شكرًا سيدي الإمام ٥٠

الغربة بين الماضي والحاضر! ٥٢

حماقة الحرفيين ٥٦

شكرًا للمحن! ٥٩

الانطباع الأول وهم أم حقيقة؟! ٦٢

الفرق بين الثقافة والعلم! ٦٦

كل البشر شياطين! ٦٩

لا تقتربوا يرحمكم الله ٧٢

نعم.. أبيح الكذب ٧٥

محنة الملتزمين! ٧٨

الأزهر.. ليس شريفا كله! ٨١

قبل أن يطاردنا الندم! ٨٤

التناقض سمة إنسانية ٨٦

المجاهد الغادر ٨٩

شهيد النساء ٩٢

أيها المصريون كفاكم وهمًا.! ٩٤

أختلف معك.. لكنك عظيم! ٩٩